العنصر الجديد أو مادة الحياة

بقلم الدكتورة جمال كرم حرفوش

* * *

يا اخواتي الطالبات – ما اجمل اللقاء بكن في موسم الحصاد ، اعز المواسم واغلاها في حياتنا القومية – فهنيئا للاباء والامهات بهذا الجني الخير ، وهنيئا للارض تتبارك برعيل جديد من البناة ، بل هنيئا للبنان رسول العلم والمعرفة ، يؤمن لهذي الكلية مناخ الحرية والاستقرار، فتضفر على جباهكن غار الحكمة ، وتستمر بعطائها ، فتظل لهذا الشرق منار هداية ، وقبلة انظار .

هو جني العمر تحصدين اليوم نتاجه ايتها الطالبة العزيزة ، الا بورك الجهد الانساني يتحول كلمة فاعلة ، وفكرا نيرا ، وارادة واعية ، وشعلة خالدة ، تضيء امامنا سبل الحياة .

في الامس البعيد ، كنت انظر الى حيث تمتد منك الان افاق الابعاد ، على ان واقع الحياة قد علمني ان لا انظر الى البعيد البعيد من الافاق ، اذ ان جوهر الاعماق انما يتدفق في معين الذات – هي ذاتك – هذا العالم العظيم بمقدراته ، الغني بخير ما جادت به عليك السماء – ترى هل اوحى لك هدى الدراسة شيئا عن معطياته ؟ ام همس المربي في مسمعك كلمة السر ليتم لك النصر في معركة البقاء ؟

انت في دنيا الوجود جزء من كل ، فهل حقق لك التعلم فهم تفاعل مستمر بينك وبين الكائنات ، اذ تأخذ منك وتعطيك ، وفيها الاهم والمهم ، وفيها الخالق والمخلوق ، وفيها ينتفض الحي والجماد ، ليشهد كل بحسب فاعليته ، ولغة تعبيره ، ونوع عطائه ، ان ازلية الوجود انما هي فينا ولنا ، وانه لا بد للحلقات المترابطة من قاعدة تصاعدية يتركز عليها التفاعل المستمر ،لتكتمل في الانسان صورة مثالية ، حلمت بها وتمنيتها الارادة المبدعة ، يوم وزعت نفحات من روحها ، لتكوني انت اسطورة الخلود ، ومحط انظار الكائنات .

اما الصورة المثالية ، الساعية ابدا لاستكمالها كل ذات بشرية – فهي مجموعة قيم وفضائل حدد بها الانسان معرفته لله – اذ وصفه بالخير ، والحق ، والعدل ، والحرية ، والجمال ، كما تصوره سعادة ، وسلاما ، ووداعة ، ومحبة – وهذي الفضائل كلها تكللت بالحكمة الملمة الماما مطلقا بمآتي الزمن ومعالم الغيب ، وقد اسست الارض ، واقرت قواعدها ، ومدت عليها الخيط ،تخطت مخادع العمر ، وعرفت مقر الظلمة ، فأمرت الصبح ، وعرفت الفجر موضعه ليأخذ باطراف الارض – هذه الحكمة – وقد انفتحت لها ابواب الموت فلا تخفى عليها الازمنة ، وعارفوها لا يشهدون يومها – الا ليت عمري ، اقال التعلم فيها كلمة .

هي ثمرة الحصاد – تقطفينها اليوم رمزا للانتصار ، والانتصار الادبي مسؤولية كبرى في اعناق الشرفاء .

لقد بلغت الذروة ، وكان لك في بلوغها شركاء .

فمن هم الشركاء الذين تحاسبهم امتك على ضوء ما انت عليه ، وما عساك تكونين في غدك لوطن احوج ما يعوزه ثروة بشرية ، ذلت امامها القيم المادية ، وكل ما رافق المادة من مغريات .

اما الشركاء – فاربعة – المعلم ، وواضع المنهج ، والمؤلف ، والادارة توفر الاجهزة نوعا وكمية ، فتؤمن التفاعل السليم بين المنهج ، والطالب ، والمعلم والكتاب .

والى شركاء الرسالة التربوية – الرسالة الانسانية الكبرى – من انصار المعرفة ، وخدام الحقيقة ، وموجهي النشء ، ومقرري مصير الانسان في كل مؤسسة من مؤسسات التعلم في لبنان ، بل في كل بقعة شيد فوقها صرح باسم الفكر والكلمة ، نقول في هذا اليوم المهيب ، الا فلنتأمل معا في وضح النهار صورة الطالب الانسان – ونوعيةالانسان فيه كانت لكم اعز واغلى امانة في الحياة – فهل جاءت صورة الامانة كما تمنيتموها ، وكما ارادها الضمير الحي ، صفاء في التفكير ، وكمالا في المعرفة ، وذاتا متزنة ناضجة ، زينتها مكارم الاخلاق ، فتكون لوطنها الامل المرتجى ، وللمجتمع اداة خير وصلاح .

والى شركاء الرسالة الانسانية الكبرى – هذي النخبة المصطفاة ، وبيدها ملح الارض ، وفي قلبها ذخر الاجيال ، نقول ، من المسؤول عن مصير الذين حرموا فرص التعلم ، واخمدت فيهم شعلة الوزنات ؟ ومن المسؤول عن مصير طلاب يتحملون اليوم اعباء فشل ذريع اوقعتهم فيه ملابسات المناهج غير المكيفة لتفي بحاجات المواطن الانسان ؟ ولهم ايضا نقول – من المسؤول عن ضحايا الغد ، ينجحون اليوم ، ليرسبوا في معترك الحياة ؟

وهل مشكلة الساعة يا سادة ، الا التفاوت القائم بين وسائل التعلم ومتطلبات الزمن ؟ فالزمن يسير باحداثه سيرا اسرع من وميض البرق ، وعلى التعلم ، وهو الاداة الحضارية الفعالة ، ان يستبق الاحداث ليوضح وجهة المسير امام انسان الجيل .

فالمعلم يندفع في طلب المعرفة من اجل المعرفة ، دون سعي جدي لتوظيف المعرفة في سبل الحق والخير ، والتقنية العلمية الصناعية المتراكمة ، تبدل اوضاع المجتمع وتعقدها ، قبل ان يقوى الانسان على تكييف نفسه

---

* القيت في حفلة توزيع الشهادات في كلية بيروت للبنات بتاريخ ٢١ – ٦ – ١٩٦٦ .

لتنسيقها ، واستخدام نتاجها في بناء كيان افضل ، فتتضعضع مقاييسه ، وتنهار القيم ، فيفسد الفرد ، ويفسد من حوله .

على ان قدرة التمييز بين الخير والشر ، كانت اول ما اعطيه الانسان من اسرار المعرفة ، فالالة غير الواعية لا تملك هذه القدرة ، والتعلم المركز على انسانية صانع الالة ، ومسيرها ، هو هو وحده قادر على توجيه الالة الجامحة لبناء الكيان الافضل .

ونحن الذين لم نسهم حتى الان بصنع الالة ، ولسنا اول المسؤولين عن مخاطر الجموح في اساءة استعمالها ، فأقله ان نتعلم كيف نعايشها ، ونسبغ عليها شيئا من روح الانسان ، لنجعل منها وسيلة عيش جديد ، واداة رغد وهناء ، لا منجلا يحصد الاحياء على قارعة الطريق ، او مقبرة لاخلاق كريمة توارثناها جيلا اثر جيل .

نحن والعالم في حلقة مفرغة ، محورها القلق والخوف لجهل المصير . انها لعمري مشكلة انسان صنع التاريخ فوقف منه في اعالي الذرى ، يخاف على نفسه من نفسه تهدم ما بنت يداه . وفي هربه من واقع الحياة يلجأ انسان العصر الى المسكنات لينام عن نفسه ، فيكون نومه انتحارا ، وضياعا لما تبقى من قيم الحياة . وكل ما يعوزه حبة من ثقة يستمدها من صميم اعماقه ، فتحرره من الخوف ، وتعيد اليه طمأنينة الحياة .

فالسلم كالحرب ، يبدأ وينتهي داخل الانسان ، وقبل ان يوجد الكائن البشري مشاكل جديدة فوق سطح القمر وغياهب الزهراء ، أحر به ان يصفي اولا مشاكل الارض بالتحرر من مركب النقص ، لجهله معالم نفسه على حد تعبير الكسس كارل — ومعناه انه لا بد للعالم الباحث عن اسرار الطبيعة ومجاهل الفضاء ، من ان يتحول عن صفة الفاعل الى صفة المفعول ، وبديل ان يكون الباحث في موضوعية الاشياء ، ان يصبح هو بالذات موضوع البحث .

والتحول في موضوعية البحث ، يستدعي ايضا تحولا في اساليب الاستقصاء ، فالبحث العلمي بمعظمه مركز على التنقيب التحليلي ، وهو بذلك يتدرج من الاكبر نحو الاصغر ، ومما يرى بالعين المجردة ، الى ما تصعب رؤيته بالمجهر . وفي هذا الانصراف التحليلي العميق جزأ الانسان نفسه ، كما جزأ صورة الواقع ، ففقد معنى الشمول . وعليه ان يعود الى الاخذ بالاجزاء المبعثرة ليبني منها صورة الكل المكمل ، ويتخذ هذا الكل قاعدة لتفكيره ، وخطة جديدة لمسيره .

ايها السادة ، ان العنصر الجديد الذي نامل ان يدخل لائحة العناصر الاولية من جراء التحول في موضوعية الاستقصاء واساليبه ، ليس بالذهب الصافي ، ولا هو الطاقة المشعة يكتشفها الانسان ، وانما هي مادة الحياة نفسها . وهذا لا يعني الاقتصار على المزيد من فهم اسرار الحياة في الكائنات وطرق تفاعلها ، وانما يعني استخدام ما اكتشفه ، وما سيكتشفه من اسرار لتعزيز قيم الحياة ، واستكمال سعادتها .

نحن اذن ايا سادة امام مادة الحياة نفسها ، تصبح علما انسانيا جديدا ، يضاف الى العلوم الاساسية والتطبيقية ، فتعنى بها مناهج التدريس بحسب خصائصها ، واهدافها ، واوضاع بيئتها ، ليلتقي الانسان بنفسه لقاء اخيرا ، يجمع بين العلم والايمان ، فيجدد مفاهيمه ، ويقوى على استكمال نشوئه ايجاد تقنية اجتماعية انسانية ، تسيطر بشكل نهائي على تقنية صناعية الية كادت تطيح بوجوده .

وانت ايتها الطالبة العزيزة ، المطلة من على هذي الذروة نحو الصفاء الاخير في حياة الجنس البشري ، كوني لهذا العالم القلق المضطرب ، حبة الثقة ، وكوني له ما ارادتك هذي المؤسسة التربوية الكريمة ، اداة خير وبركة تسهل حلول الاعجوبة في اعماق الذات البشرية ، ليتحول فيها الشر خيرا ، والحرب سلاما ، والبغضاء محبة .

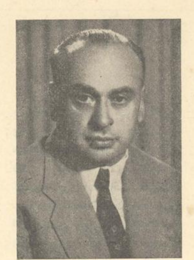
فالاعجوبة تمن ، وايمان ، وارادة ، والاعجوبة عمل مضن ، وصلاة يشترك فيها الكل لكسب الشوط الاخير في المعركة الانسانية الكبرى .

جمال كرم حرفوش

انسان

يا ظامئا يتقرى برق كاذبة
وفي دواخله بحر وشطآن
من أمس أمس وحلم الارض يخنقه
قاع ويحجبه ليل وجدران
كأنما شجر الصفصاف ما وغلت
عروقه واستطالت فيه أغصان
الا ليصنع منه لوح مشنقة
وان يقوم لسفاح به حان
ينام في غاره الاعمى فيالفه
وفي أصابعه عين وانسان

الكويت **محمد الفايز**



الدكتور محمد حاج حسين

الشعر والعاطفة

بقلم الدكتور محمد حاج حسين

* * *

عرّف قدامة بن جعفر الشعر في كتابه نقد الشعر بقوله : « انه قول موزون مقفى يدل على معنى ، فقولنا قول دال على اصل الكلام الذي هو بمنزلة الجنس للشعر ، وقولنا موزون يفصله عما ليس بموزون اذ كان من القول موزون وغير موزون . وقولنا مقفى فصل ما بين له الكلام الموزون قواف ، وبين ما لا قوافي له ، ولا مقاطع . وقولنا يدل على معنى يفصل ما جرى من القول على قافية ووزن مع دلالة على معنى مما جرى على ذلك من غير دلالة على معنى » .

وهكذا عرف قدامة بن جعفر الشعر . ومما لا شك فيه ان تعريفه اهمل اهم خصائص الشعر الا وهي العاطفة التي تؤجج الحياة فيه ، وتجعله متقدا بهذا اللهب الذي يسري بين جوانحه ، فيجذبنا اليه ، لنجد فيه غذاءنا الروحي ، ومتعتنا الفنية . وبهذا التعريف يدخل في الشعر تلك المنظومات الفئة الباردة التي نظم بها اصحابها بعض العلوم كالنحو والطب وما شاكل من هذا اللغو الذي لا جدوى منه ، لقد طعن قدامة بن جعفر الشعر في تعريفه هذا ، وازهق روحه وداس على جوهره . وقدامة اول ناقد عربي اتصل بالثقافة اليونانية ، فقد ترجم ابو بشرمتى بن يونس كتاب الشعر لأرسطو ، وانتفع به قدامة كثيرا وتعريفه الذي ذكرناه ليس سوى تطبيق بين تعريفات ارسطو الشكلية التي تعتمد على المقولات . وهكذا ذكر ان عناصر الشعر اربعة هي : اللفظ والوزن ، والقافية ، والمعنى .. واهمل العاطفة التي نراها الركيزة التي يعتمد عليها الشعر في انطلاقه الى عالمه الجياش بالرؤى الحالمة ، الحافل بهذه الدنيا الشادهة التي تزدهف لب الانسان .

ويبدو ان استاذنا المرحوم احمد امين ـ طيب الله ثراه ـ حاول في بعض مقالاته سد هذه الثلمة ، فعرف الشعر بقوله : « انه كلام موزون مقفى صدر عن عاطفة ، واثار عاطفة . » والواقع ان الشعر الذي يصدر عن عاطفة لا بد ان يثير عاطفة اخرى ، فالعواطف توشج بينها قرابة متينة ، فاذا كانت صادقة لا بد ان تؤثر في الانسان ، ويعيش معها فترة من الزمن ، ولا سيما اذا كانت تمور فيه نفس العاطفة التي التهبت بالشاعر الذي استطاع ان يعبر عنها لتجد صداها عند الاخرين الذين يحسونها ، ولا يستطيعون التعبير عنها . والحق ان الشعر قد يبلغ الذروة اذا احتدمت فيه العواطف ، واعتلجت في غضونه حتى لو جانب الوزن والقافية ، فكثير من النثر يرقى الى مرتبة الشعر الرفيع في اتساقه ونفحاته العذاب ،والروح الحية التي تسري فيه ، والعاطفة المتقدة التي تجنحه ، والشعر لا يستطيع ان يستغني عن العاطفة .. لانه ببساطة ، يستحيل الى مجرد كلام موزون مقفى لا يبلغ هدفه ، ولا يجد له صدى في النفس . اما العاطفة هي غذاء الشعر ، ودعامته الكبرى ، فلولا سريانها في الفاظه وتعابيره لما صمد للزمن ، متهاديا من عصر الى عصر ، يتلقفه كل جيل ليجد فيه متعته الروحية ، ونشوته القريرة .. اذ انه يمثل النفس الظميئة الى الحق والخير والجمال .. هذه الاقانيم القدسية التي تجد لها في كل زمن رعاة يحدون لها عذب الاناشيد ، ويهتفون لها احلى الاغاريد ، فتتألق خالدة ، وتصبح غذاء حيا للانسانية التي تسير نحو غايتها المثلى .

ان من تحصيل الحاصل القول ان العاطفة عنصر هام في كل عمل ادبي .. والشعر ـ بخاصته ـ اكثر حاجة اليها من سائر الفنون الادبية الاخرى ، فهي التي تهبه الحياة والقوة والبقاء ، لانها قوام حياته ، ومستراد أفقه ، والشحنة الكهربائية التي تطبعه بطابعها الحساس .

ولقد وضع النقد الادبي جملة مقاييس للعاطفة نلخصها فيما يلي :

١ ـ صدقها : لعل أقوى ميزة للعاطفة في الادب بصورة عامة هي صدقها .. وفطن حسان بن ثابت الى هذا فقال :

وان أشعر بيت انت قائله ... بيت يقال اذا انشدته صدقا

فليس أعذب الشعر أكذبه ، بل أصدقه ، فالصدق

في العاطفة هو الجناح الذي يطير به الشعر الى القمة الفنية ، وهو لا يبلغ فنيته حقا الا اذا صدر عن عاطفة تعتلج بالصدق ، تدافعت في حنايا الشاعر ، واستطاع ان يعبر عنها باخلاص والا اتى الشعر مجرد نظم لا يعدو الكلمات المرصوفة المنمقة التي يستحيل معها الى جثة محنطة . ان خير الشعراء اولئك الذين صدروا عن تجربة حقة عانوها ، وقديما قالوا : ان الكلمة التي تخرج من القلب تقع في القلب ، أما اذا تكلف الشاعر عاطفته ، وزورها وزيفها ، ومان فيها ، فشعره لن يعدو الشفاه ، ولن يكتب له البقاء . فجوهر الابداع الفني هو الصدق ، والكلام في هذا اصبح مكررا لاغنية فيه .

اما قولهم اعذب الشعر اكذبه .. فاذا كان قائله يبغي به الكذب في الاحساس ، فقد كبا بـه الطريق الصواب ، وبنا عن الحقيقة ، فالشعر الذي بني على كذب خال من كل روح لا يؤثر في النفس ، ولا يتغلغل الى القلب ، ولا يقتات منه الوجدان . اما اذا كان صاحب هذا القول يريد بالكذب قوة الخيال وانطلاقته الفياحة ، وتحليقه في ابداع الصور الفنية ، فاننا نقره على رايه ، فالخيال احد عناصر الشعر الهامة يفترع الصور الشعرية البكر ، والرموز القريبة او البعيدة التي تسبغ على الجو الفتي لونا من الحياة والمتعة التي تشربها النفس . .

ومن الطبيعي ان الشاعر لا ينظم لنفسه فحسب ، بل لا بد له من قراء يعيشون معه هذه اللحظات السامية التي عبرت به ، فاذا كان صادقا في عاطفته تجاوب القارىء معه ، وتغلغل شعره في دمه ، ورردده باعجاب لانه عزف على أوتار قلبه ، فالشاعر الحق هو الذي يصدر عن عاطفة صادقة مارت في أعماقه ، فصدق العاطفة الدعامة الكبرى التي تجنح الشعر الى السمو .. ولهذا كان على الشاعر الا يهتف بشعره الا بعد ان تعيش فيه عواطف حية لا يجد مناصا بعد هدوئها من التعبير عنها ، وبهذا يتسم شعره بالاصالة .. اما اذا عالج موضوعاته دون ان تنبض في أعماقه العواطف ، فيأتي شعره مجرد تقليد باهت بعيد عن كل ابداع . ويرى كثير من الباحثين ان الشعر الحقيقي في الادب العربي ، هو الشعر الذي قيل في الجاهلية .. ومرد هذا الى ان هؤلاء الشعراء كانوا يصدرون عن عواطفهم الصادقة دون تكلف او تلفيق ، فالحياة كانت ساذجة بعيدة عن كل تعقيد حضاري ، فجاء شعرهم معبرا عن نفوسهم يحترم فيه الصدق ، وهذا كان لصيقا بنفوسنا ، حبيبا اليها رغم تباعد الشقة بيننا وبين أصحابه ، وليس لهذا من سبب سوى ان العاطفة الصادقة البعيدة عن كل تصنع تظل حية عبر الاجيال لا تزيدها السنون المديدة سوى صقل وقوة ومضاء وسيرورة .

ولا مشاحة ان الشاعر العبقري قد يستطيع ان يزيف العاطفة ، ويلبس كذبها لونا من الصدق بما امتاز به من موهبة فنية فائقة ، وقوة في شاعريته .. وقد يخدعنا ، فيخيل الينا انه صادق في عاطفته ، حي في تجربته .. ولكن هذا المركب الخشن لا يستطيعه الا الافذاذ من الشعراء الذين التمعت العبقرية في شعرهم .. وهم قلة في كل عصر .. غير ان شعرهم يسمو الى الاوج فيما اذا انبعث عن عاطفة أحسوها تجري حية في نبضهم .

٢ ـ قوتها : ولا بد للعاطفة ان تتسم بالقوة ليكون لها التأثير في نفوسنا .

ولم يضع نقاد الادب مقاييس دقيقة لهذه القوة العاطفية ، لتعدد مناحي العاطفة ، واتساع آفاقها ، وترامي اطرافها ، وكثرة الوانها ، وتنوعها . ومردها الى القارىء ، فهو الذي يحس بتفاوت درجات هذه القوة . والنقاد لا يعنون بقوة العاطفة صخبها وثورانها ، بل تكاد تكون العاطفة الهادئة اقوى أثرا في النفس من العاطفة الهائجة الصخابة .. والشاعر ـ في الحق ـ لا يبدع شعره في حالة هيجان عاطفته ، بل سيبدعه في حالة سكونها عندما يستعيدها .. ومما لا شك فيه ان قوة العاطفة تستمد من موهبة الشاعر واصالته وقدرته وطبعه الفني .. فتنعكس في نفوسنا متدفقة بالحياة ، وتجعلنا نتعلق بهذا الشعر نردده باعجاب لان النار القدسية التي اشتعلت في صميم الشاعر انتقلت الينا ، ونفذت الى أعماقنا ، وشدتنا اليه باعجاب لاننا وجدنا في ابداعه الفني ما يأتي نفوسنا الظمئة الى ينبوع الجمال والخير والحق .

٣ ـ ثباتها : ومن الطبيعي أن تجنح المقاييس النقدية الى ثبات العاطفة ، واستمرارها في القصيدة بنفس التوتر ، حتى لا يبدو الوهن على بعض الشعر ، والقوة على بعضه الآخر . وهذا أمر ميسور في الشعر الغنائي لان القصيدة محدودة الابيات ، ويستطيع الشاعر الموهوب أن يحافظ على تدفق عاطفته ، وثباتها في هتفاته الصادقة ، وتجربته التي يعبر عنها . اما اذا تعثرت بـه العاطفة ، وتفاوتت في قوتها وتدفقها ، فلا بد ان يتعاور النقص شعره ويقص جناحيه المحلقين ، فالشاعر الفحل هو الذي يستطيع ان يظل متماسكا بعاطفته القوية يقطر فيها أنفاسه ، ويسكب فيها روحه المتوثبة .. ولهذا اراني نزاعا الى القصائد القصيرة التي يستطيع فيها الشاعر ان يحافظ على التوازي في قوته العاطفية ، فنحن في عصر كثر فيه الشعراء الذين اعوزهم الابداع ، حتى مج الناس الشعر ، فلا بد لنا من الشعر الرفيع الذي يستطيع ان يحلق في سماء الابداع ليشدنا اليه برباط وثيق حتى نستطيع أن نجد فيه غذاءنا الفني ، واشواقنا الروحية التي يستطيع الشعراء ان يترجموا عنها اكثر من سائر الفنانين لما للشعر من انسكاب في النفس ، ونوطة في القلب ، وعلوق في الروح .

٤ ـ تنوعها : الشاعر الكبير لا يقتصر على عاطفة

واحدة يغنيها ويهزج لها اهازيجه الشاعرة ، فشكسبير اكبر الشعراء لانه استطاع ان يسكب في شعره مختلف العواطف الانسانية مثلها تمثيلا يتصف بالروعة الباقية . وهذا التنوع في العواطف لا يتأتى الا لافذاذ قلة من عباقرة الشعر في العالم ، فالكثرة من الشعراء ينزعون في شعرهم الى التفرد بعيدين عن هذا التنوع الذي يسمو بالشعر الى أفق كله نور وخلود . ومن الطبيعي انه كلما تعددت المناحي العاطفية كان الشعر أقوى وأسمى ، فالشاعر العبقري هو الذي ينفض في انتاجه صورة متناسقة لمختلف العواطف الانسانية التي تتجمع في حشد وافر كظيظ .. ومقاييس النقد الادبي تجد في هذا التنوع الحاشد سر العبقرية ، وهذا طبيعي ،فالشعر يجب الا يقتصر على لون واحد . وكلما تعددت نغماته كان اقرب الى النفس الانسانية التي تتعدد فيها العواطف.

هذه هي أهم المقاييس النقدية التي اتخذها النقاد مقياسا للعاطفة الشعرية .. ولن أتعرض الى سمو العاطفة أو ضعتها ، فقد كانت هذه مثارا لجدل كبير بين النقاد.

وعندي انه لا توجد عواطف سامية وأخرى وضيعة ، فالشاعر حر في التعبير عن عواطفه ، ولا نستطيع ان نقيده بقيود ولو كانت من ذهب ، فكل ما عبر عنه في صدق واخلاص هو شعر مهما كانت العواطف التي تنداح فيه ، فالشاعر ليس بالواعظ الاخلاقي ، انه كاهن في هيكل الجمال يتبتل فيه ، ويشدو بروائعه .. وجون بول سارتر أعفى الشعر من الالتزام .. فطبيعة الشاعر لا تشدو الا الجمال في ألوانه وأفانينه ، وحسبه هذا الشدو ، ففيه الخير ، وكل الخير لصقل النفس والارتفاع بها لانه يغرس فيها حب الجمال ، وليس هنالك معلم للفضيلة والسمو كحب الجمال .

وغالى شعراء الرومانتيكية في تمثيل عواطفهم في شعرهم ، وعبروا عن آلامهم ، وأشواقهم ، وأحلامهم حتى اصبح شعرهم تعبيرا عن ذاتيتهم ..غير ان سرعان ما مل الناس انغامهم، واشتعلت الثورة على الرومانتيكية، وندد بها النقاد ، فالرومانتيكية تذهب الى ان الغاية من العمل الفني هو التعبير عن شخصية صاحبه ، وكتب احدهم يندد بهذا ، وخاطب الشاعر الرومانتيكي قائلا : « ماذا يغنيني من تأوهاتك وتنهداتك وآلامك واحزانك ، فلتذهب معها الى الجحيم » . وأجاب فيكتور هيغو على هذه الثورة العارمة منددا بها بقوله : « يا عديم الاحساس .. هل تظنني غير انت »، ومعنى هذا ان الشاعر الرومانتيكي الذي يعبر عن عواطفه يعبر في الوقت نفسه عن عواطف الاخرين ، لان العواطف – في الواقع – مشتركة تكاد تكون نفسها لدى جميع الناس .

واشتعلت الثورة على الرومانتيكية ، مما قلل من قيمة العاطفة في الشعر لدى كبار النقاد المحدثين . ولعل الناقد والفيلسوف الانجليزي هيولم كان من اكبر النقاد الذين عملوا على تقويض الرومانتيكية بثورة عارمة بدت في مقالاته التي هاجم فيها اتجاهاتها الذاتية ، المشحونة بعواطف شعرائها الخاصة ، فقد هاجم في قسوة الذاتية والغموض في الادب الرومانتيكي ، ودعا الى الموضوعية والنظام في الفن بصورة عامة ، كما اهاب بالشعراء لابداع الصور الجافة القوية في شعرهم .وهذه المقالات كانت ارهاصا للنقد الحديث في حركته الجديدة التي تطلب من العمل الادبي ان يتميز بالدقة والنظام .

ولقد اثرت مقالات هيولم هذه في الناقد الكبير اليوت اثرا كبيرا وتجلى هذا الاثر في مقاله المشهور «التقاليد والموهبة الادبية» الذي أعلن فيه بصراحة ان الشاعر ليس له شخصية يترجم عنها ، وكل ما في الامر ان لديه وسيطا خاصا تتجدد فيه الانطباعات والتجارب بطرق خاصة غير متوقعة .

ومن المتوقع في هذا الاتجاه الموضوعي ان تقل قيمة العاطفة في الشعر ، فاليوت رفض زعم الرومانتيكية التي ترى ان الذاتية هي الاساس الذي يبنى عليه الشعر. ويرى وردثورت الشاعر الانجليزي الرومانتيكي في مقدمة ديوانه «الحكايات الوجدانية المنظومة » ان جوهر الشعر هو التعبير عن تحربة روحية عاطفية انبعثت من نفس الشاعر . ولم يقر اليوت هذا الراي ، ففي رايه ان الشعر لا يتخذ اصوله من العواطف ، وليس هو اطلاق العاطفة، وانما هو فرار من العاطفة ، وليس هو تعبيرا عن الشخصية بل هو هرب منها . ومعنى هذا ان الاهتمام بالعمل الفني باعتباره ترتيبا للصور له قيمته اكثر مما هو اهتمام بالاثر العاطفي للعمل الادبي في قارئه .

واذا أصغينا لآراء الناقد آلن تيت نجده يقول ان المتعة الفنية في القصيدة لا تنحصر في تمثيلها للعاطفة التي احتدمت في الشاعر عندما قذف شعره .. فالشعر لديه وضع المعنى في نمط مركب لمعنى من المعاني .

ويرى بول فاليري ان الشعر مجرد صنعة كبقية المهن .. او كما يصنع النجار الباب مثلا ، وهو في هذا لا يدع مجالا فسيحا للعاطفة في الشعر .

غير اننا في الواقع لا نستطيع ان نقر هذا الاتجاه الذي يقلل من قيمة العاطفة في الشعر ، فالنقد الحديث تطور مع الادب الخلاق ، فأكثر هؤلاء النقاد الجدد شعراء ، فمقالات اليوت في النقد مثلا ليست سوى صدى للمثل الشعرية التي كان يحتذيها في شعره ، فهو يعرض وجهة نظره الخاصة ، وينافح عنها ، وكأنه في نقده يصف خصائص شعره .. ومن الطبيعي ان هذه الخصائص لا تنطبق على جميع الشعراء ، فلكل شاعر عالمه الخاص وذاتيته ، واتجاهاته وفنه .

وفي اعتقادي ان العاطفة هي دعامة الشعر الخالدة، فلولاها لما كان له الخلود والتأثير والحب .. ولا يمكن ان يقلل من قيمتها آراء بعض النقاد والشعراء مهما اتسعت عبقريتهم ، وسمت مواهبهم ، فالشعر عاطفة حية قبل كل شيء .. وعظمته مستمدة منها ، لانه يجلوها لنا، فنجد فيها نفوسنا ، وتزيدنا تبصرة بالحياة.

مكة المكرمة

محمد حاج حسين

رؤوس النعـام

●

في الكون نذوب
والكون فينا يذوب
علينا تفرض البداية
مثل النهاية
ان دار الكون درنا
ان جمد جمدنــا
نصير رمادا ان تثاءب
نهرع للسؤال والجواب بلا ضباب
من فم المكان او من فم الزمان
من فم النجوم وأبراجها العظام
مثل السحالي ، مثل العناكب
تلوننا ارض وموقف وقدر
وفي الزوايا نختفي،نحوك بيوتا واهية
بهبة نفس او مضرب مأجور
ننهار ثم نطير
يلحق بنا العنكبوت بلا هدف
يلملم الخيطان والقش والملل
أو يشد أرجله الى صدره الحجر
كمشة او أقل من صفر
عيــن تتدحرج من القطبين
وعصفور يرف بريشتين
وأفعى تتمطى ، وأخرى تتكوم صخرة
مثل أفاعي المكسيك في حجار سود
صنعها انسان قبيح
يعرف سم الافاعي والثعابين
وآخر ينطلق لحلم الطفولة
الخيط ، والدولاب ، والحصيرة
ثم شمس أليفة .. وقمر خفيف
حوَل الدنى «ميرو» لعين الطفولة
أنامل تخاف أن تجرح العين والعنبر
تلون بالخط ، بأشباه الصور
يحلم طفل بدولاب الهواء

بالشمس، والقمر، والطير فوقالشجر
بح منا الصوت وزحل
أبراجنا تتارجح بين مريخ وقمر
تعبّد الدروب بالمقل
وتحكي تلك عن لا شيء
عن فراغ غل فيه القدر
كيف بدأت حياة البشر ؟
كيف انطلق كوكبنا مثقلا بالفناء ؟
والموت اكبر لعنة للبشر
من حط عليه القدم ؟
ملايين الفكر ..مثل الفراش تموت
حول الشمس والقمر
والانسان ذليل بعروق
يجري فيها دم مختثر
مكبل بالموت وشقاء الفكر
بهواء الارض والعلل
يقتله .. يخلده كوكب آخر
ركعنا في الكون نذوب
ركع الكون فينا يذوب
الليل فراغ كذا النهار
والعمر مربوط بوحش الفناء
ندب في أرض يباب
وناس كالذباب
في جسد يباب
في روح سلخها عنا الدود والحجر
في الكون نذوب
والكون فينا يذوب
يملأ الفراغ رعب الضفادع
ورؤوس النعام
ومشية الحجل

ثريا ملحس



محمد رجب البيومي

محمد رجب البيومي في بحثه الاندلسي *

بقلم الدكتور محمد مهدي عـلام

عضو مجمع اللغة العربية بالقاهـرة

* * *

هذا يوم من أيام المجمع السعيدة ، يوم يمارس فيه المجمع تقليدا علميا كريما ، سار عليه في كل عـام ـ الا في فترات قصيرة أعوزه فيها المال الذي يقدمه جوائز ، وان لم تعوزه في يوم من الايام نية الاجازة ، والرغبـة في تقدير العلماء والادباء والشعـراء ، الذيـن يساهمـون بأعمالهم الجادة في مجال نشاطه ، ويتأثـرون خطواتـه فيما ينشئون ويؤلفـون .

ولئن كان مثل هذا الحفل يخصص بمن يتقدمـون للمسابقة الادبية السنوية التي يعلنها المجمع ، تشجيعـا للعاملين في الميدان الادبي واللغوي ، ان هناك نوعا آخر من التشجيع ، بل التقدير الصامت الرفيع ، يقوم بـه المجمع لفئة من الاساتذة المؤلفين ، اذ يفسح في صفحات مجلته لبحوثهم اللغوية والادبية .

والمجمع بذلك يخرج من صومعته العلمية ، ليشرك في نشاطه كل من يأنس من نفسـه أن يؤدي للغة والادب جزءا من الدين العظيم الذي في اعناق العروبـة نحـو تراثهم المجيد وحاضرهم العتيد ، ومستقبلهم المشـرق ، فلقد أتى على المجمع وقت صور فيه أنه برج عاجي يقيـم فيه طائفة من العلماء يصدرون مصطلحات شـاء أحـد الكتاب المتفاكهين ان يمثلها بما نحله للمجمـع مـن ان السندوتش هو شاطر ومشطور وبينهما طازج ، حتى ان هذه الفكاهة قد لاحقتنا الى بغداد ، حيث كان مؤتمـر المجمع منعقدا في الشهر الماضي .

لقد ألصقت الفكاهة وروح التندر بالمرحوم الشيخ حمزة فتح‌الله قصة طلبه لأتان جمزي ليركبها ، وكـاد الناس ينسون عن هذا الشيخ الجليل كل ما قدمه للغـة ولا يذكرون منه الا الاتان‌الجمزي ، وحاشا ان يكون نصيب المجمع شبيها بذلك فينسى له كل ما يقوم به ، ولا يذكـر عنه الا الشاطر والمشطور والطازج الذي بينهما .

ان المجمع هيئة نابضة بالحياة ، تشعر بمسئوليتها نحو الامة العربية التي تتطلع اليها في نهضتهـا العلميـة واللغوية والادبية . . وفي هذا الحفل يمد المجمع يـده بالتحية الى جندي من جنود الادب العربـي ، تقـدم للمسابقة في موضوع عويص ، مسلحا بأسلحة الباحث الجاد ، من اطلاع واسـع ، واستعـداد طيـب للنقـد واستخلاص النتائج العلمية .

وكانت فكرة المجمع ـ ممثلة في اختيار لجنة الادب لموضوع المسابقة ـ هي فتح باب البحث العلمي في هـذا الجزء من تراثنا العربي ، فهو ميدان ما زال مجال القـول فيه فسيحا ، لاتساعه وتشعبه ، ولاندثار جزء عظيم منه، وبقاء معظم ما بقي منه في طيات المخطوطات ، وللحاجـة الماسة الى مزيد من الباحثين الجادين فيه .

وقد قابلت هذه المسابقة صعوبتان ، احداهمـا واجهت المتسابق ، والاخرى واجهت لجنة الادب فـي المجمع . اما الصعوبة الاولى فقـد تصورها المتسابق ، ولم تكن في حقيقتها صعوبة . ذلك انه يقول في مقدمة بحثه : « حين قرأت اعلان المسابقة الادبية ، وجدت في نفسي رغبة صادقة في الحديث عن الادب الاندلسـي ، فعندي عنه ما يمكن ان يقال فيه . ولكن اقتصار الاعلان المجمعي على كلمتي الادب الاندلسي وحدهما قد تركنـي في حيرة ، اذ ان ثمانية قرون تحفل بمئات الشخصيات، وشتى المذاهب ، ومختلف العصور ، لا يمكن ان يتسـع للحديث عنها كتاب واحد يكتب في أشهر ! فلا بد ان يكون عن ناحية خاصة من نواحي هذا الادب الحبيب !. »

وهذا هو ما قصده المجمع ، لا ما يتصوره الباحـث من كتاب يتناول ثمانية قرون مـن تراثنـا العربي فـي الاندلس . وما كان من الممكن ان يقصد المجمع استيعاب التاريخ الادبي للاندلس في بحث واحد . بل ان صيغـة الاعلان أشمل مما فهم المتسابق نطاقا ، واضيق تطبيقا ، فالاعلان يقول : « الادب الاندلسي او المغربي : في ليبيا ، او تونس ، او الجزائر ، او المغرب » . ولا يعقل ان يطلب المجمع بحثا يستوعب أدب المغرب العربي ، بـل انـه لا يطلب ما يستوعب الادب الليبي او التونسي او الجزائري او المغربي . فهذه كلها ميادين بحث يختار منها الباحث

* نص الكلمة الناقدة التي القاها الدكتور محمد مهدي علام فـي احتفال مجمع اللغة العربية الخاص بتكريم الاستاذ محمد رجب البيومي

مادة لبحثه .

ومهما يكن الامر فقد احسن المتسابق حين حل لنفسه الصعوبة التي تصورها في عنوان المسابقة فاختار ان يكتب عن «الادب الاندلسي بين التأثر والتأثير» .

وأما الصعوبة الثانية فقد واجهت اللجنة عندما وجدت أنه لم يتقدم للمسابقة الا بحث واحد . فهل نلغي المسابقة على اساس انه لا تقوم مسابقة الا بين عدد من المتسابقين ؟ ولكن الموضوع بحث في اللجنة وفي مجلس المجمع . ورات اللجنة ، واقرها المجلس ، ان المسابقة قائمة ، لان المتقدم الوحيد لا بد له في الا يتقدم معه احد غيره ، حتى يحرم حقه في النظر في انتاجه . واستقر الراي على أن المفاضلة بين المتسابقين — وكان يبدو اول الامر انها لن تتحقق — لا تكون الا بعد اختيار عدد من الانتاج المقدم يكون قد ارتفع الى المستوى الذي ترى اللجنة انه جدير بالاجازة . عندئذ ، وعندئذ فقط تكون المفاضلة . اما اذا لم يرتفع اي من الاعمال المقدمة الى ذلك المستوى فلا مفاضلة ولا جائزة . فالمبدا الذي نسير عليه اللجنة هو انها لا تختار لجوائز المجمع افضل ما يقدم اليها بغض النظر عن مستواه . فهي لا تسير على أن في الشر خيارا ، بل لا بد ان يكون هناك خير يفاضل بينه في ترتيب الجوائز الممنوحة . ولما كان المقدم في هذا العام عملا واحدا فقط رات اللجنة فحصه ، فان ارتفع الى المستوى الذي يجيزه المجمع ، نظر في تقدير هذا المستوى لتحديد رتبة الجائزة التي تمنح . وها نحن اولاء نحتفل الليلة باعلان راي اللجنة ، وهو ان هذا البحث يستحق الجائزة الاولى .

وكان صاحب البحث قد قدمه باسم مستعار هو « ابن بسام » ولم تكشف اللجنة عن اسمه الحقيقي الا بعد فحص البحث واجازته ، فاذا هو صديقنا القديم الاستاذ محمد رجب البيومي ، صاحب السبق في نوال جوائز المجمع الادبية .

وهو رجل وهب نفسه للعلم والتعليم ، يعلم نفسه ويعلم تلاميذه ويفيد قراءه . تخرج من كلية اللغة العربية بجامعة الازهر عام ١٩٤٩ ، ومن معهد التربية العالي للمعلمين في السنة التالية لها ، وهو الان المدرس الاول للغة العربية بدار المعلمات في الفيوم . وله نشاط ادبي ملحوظ يكفي في تقديره شهادة الاستاذ احمد حسن الزيات له بأنه في طليعة كتاب الرسالة . وهو منذ نحو عشرين سنة يكتب في المجلات الادبية بالجمهورية العربية المتحدة ، وبعض البلاد العربية الاخرى .

وله كتب عدة ، من الممكن تصنيفها الى نثر وشعر، أو تصنيفها الى قصص ومسرحيات . ومهما يكن الاساس الذي تصنف عليه فهذه اهمها :

١ — ابن حنبل ، ترجمة ادبية في صورة قصة توضح الصراع بين المعتزلة واهل السنة في العصر العباسي .

٢ — علماء في وجه الطغيان ، وهو كتاب يتحدث فيه عن عدد من العلماء الذين قاوموا الارهاب في عصور التاريخ الاسلامي .

٣ — بطولة شعب ، وهي قصة تاريخية تصور الحملة الفرنسية .

٤ — مع الابطال ، وهي تراجم ادبية لعدد من ابطال المعارك الحربية ، ممن جمعوا الى الشجاعة الحربية شجاعة الراي والعقيدة .

٥ — ملك غسان ، وهي مسرحية شعرية تاريخية تصور المساواة في الاسلام في ضوء حادثة جبلة بن الايهم مع الاعرابي . وقد نالت الجائزة الاولى لوزارة التربية والتعليم عام ١٩٥٨ .

٦ — مسرحية انتصار ، وهي كذلك مسرحية شعرية تصور عهدا من عهود الحروب الصليبية . وقد نالت جائزة شوقي من المجلس الاعلى لرعاية الفنون والاداب والعلوم الاجتماعية عام ١٩٦١ .

٧ — فوق الابوة ، وهي مسرحية شعرية ، نالت الجائزة الاولى لمسابقة المسرحية ، من مجمع اللغة العربية عام ١٩٦٣ .

٨ — صدى الايام ، وهو ديوان شعري ، نال به الجائزة الثانية في المسابقة الشعرية لمجمع اللغة العربية عام ١٩٦٤ .

فجائزة السيد محمد رجب البيومي الليلة هي ثالث جائزة ينالها من مجمع اللغة العربية . فهو بذلك صديق قديم يعتز المجمع بصداقته .

والمجمع في اعتزازه بأصدقائه يجمع لهم بين التنويه والتوجيه ، ولن ينقص ما فيه من التوجيه ما يحمله من التقدير والتنويه .

لقد القى الباحث شبكة مترامية الاطراف ، فجمع فيها كثيرا من شوارد الموضوعات ، ولكنها كانت ككل شبكة كبيرة تضم بعض ما يعلق بكريم الصيد .

ومما يذكر للباحث شجاعته في مناقشة آراء السابقين والمعاصرين ، وهي شجاعة محمودة ، كشفت عن سعة اطلاع ، وثقة بالنفس ، كما كشفت عن بعض الحقائق التي ندت عن سابقيه . ولا شك انه سيسلم لمن يقرأ بحثه ان يسلط عليه من الاضواء مثل ما سلط هو على كتابات من سبقه . لقد تبنى الباحث موضوعا شاقا، تبناه واحبه وعطف عليه وعكف عليه . ولكنه لم يتعصب له الا قليلا . لقد بحث عن المجد العربي في الاندلس ، واشاد به وبأثره في المشرق العربي ، وفي المغرب الاوروبي . ولكنه حين بدا له ان السبق لم يكن للاندلس في بعض الفروع لم يتردد في اعلان ذلك ، كما فعل في موضوع الموشحات ، وفي رثاء المدن والدول ، فقد خاض في هذين الميدانين معركتين اصاب فيهما نصرا ،

همسة

يا حلوة التصبي — يا مرة التأبي
يا وردة فواحة — أشواكها بقلبي
الشوق يبدو ظاهرا — ان تطر في بهدب
فاعلنيه مرة — أو اكتمي وخبي

القاهرة — عبد الهادي حرب

واصابته منهما بعض الجراح . وقد كان في هذا ، ككل جندي باسل يتقدم الى هدفه محتملا كل ما يقابله من صعاب .

لقد تحدث الباحث في اثر الازجال والموشحات في شعراء التروبادور ، وعن دور الاندلس في نمو القصة الاوروبية ، وعن اثر الحب العذري في الادب الغربي ، واختص بعض نوابغ الاندلسيين بدراسة مستفيضة ، كصاحب طوق الحمامة ، وصاحب حي بن يقظان ، وابن رشد وما احدثته كتبه من يقظة فكرية في اوروبا .كذلك ناقش في اسلوب علمي تأثير ابن شهيد في ابي العلاء ، واثر ابن خلدون في الاسلوب الادبي المعاصر .

ومن دلائل شجاعته عدم تردده ازاء قلة المنشور من الآثار الاندلسية فهو يقول : « وقد رأينا من الكتاب من ينادون بالتريث في دراسة الادب الأندلسي ، وحجتهم ان اكثر كنوزه لا تزال مطمورة في خفايا النسيان ، وما تقدمه المطبعة بين الفينة والفينة من نفائس المخطوطات لا يساوي شيئا اذا قيس بما تختزنه المكتبات العالمية في الشرق والغرب . وقد تبدو لهذا الراي وجاهة سريعة عند من لا يتعمقون الاشياء . اما الذين اوتو نصيبا من الدقة الحصيفة فيعرفون ان الكلمة الاخيرة في اي ادب من الاداب لم تقل بعد ، وان كثيرا من الحقائق المتأصلة على مر الاحقاب تتعرض لانهيار مفاجيء، حين يعمد لها من يتسلح بالمثابرة والنفاذ ، فيرى بها غير ما يرى السابقون من ذوي التفكير . واذا كان ذلك شيئا طبيعيا في دنيا الادب والعلم ، فلماذا نجفل عن دراسة الادب الاندلسي ؟ والى اي مدى ننتظر ؟ وما الذي يمنع ان نقول كلمتنا الان ، فاذا جد جديد تتمخض عنه المخطوطات المطمورة ، فانه اذ ذاك لا يصطدم بمنطق الاشياء ، بل يكون اطرادا للسير على منهج معلوم . ولعمري لو افلح هؤلاء في صد الباحثين عن قضايا الادب الاندلسي انتظارا لما سيجيء لتطاول الزمن دون ان نظفر بما ينقع الغليل في منطق اولئك ، وهكذا تضيع الحقائق بين المطال والتسويف » .

ولعله يرى ان المجمع لم يكن من اصحاب الراي الذين يسوفون البحث في الادب الاندلسي بدليل دعوته الى المسابقة في الكتابة فيه ، وان كانت دعوته لم تجد الا مستجيبا واحدا ، مما يؤيد الباحث في تخوف الباحثين .

ولا اريد أن اختم كلمتي هذه قبل ان أشير اشارتين سريعتين الى محتويات هذا البحث الناجح : احداهما للتنويه ببعض ما جاء فيه من الاراء الجديدة السديدة ، والاخرى للتوجيه في بعض ما اشتمل عليه البحث من روح التحمس التي تغلبت على منطق الفكر .

واذا كان المقام يقضي ان اوجز في جانب التوجيه فاني أرجو صديقنا الباحث ان يراجع رايه فيما يقوله عن اثر المقامات في نشأة القصة الاوروبية ، وعن علاقتها بقصة « باميلا» للكاتب رتشارد سن وأن يعيد البحث فيما كتبه عن علم القراءات الذي يبدو انه قصد به علم التجويد، وان يبرىء المرحوم الاستاذ احمد امين مما عزاه اليه من انه يعلن خلو الادب المشرقي من رثاء المدن وبكاء الدول الزائلة ، فعبارة احمد امين ـ كما نقلها الباحث نفسه ـ لا تزيد على انه يقول : اننا لم نر في هذا المجال الادبي في المشرق كالذي رايناه في الاندلس .

اما مجال التنويه ففسيح يكاد يشمل البحث كله .

ومن امثلة ما ذكره بصدد الموازنة بين شعر الطبيعة في المشرق ، وشعر الطبيعة في الاندلس ، فقد قال : « من الخطأ الذي يقع فيه أرباب الموازنات بين الادبين انهم يجعلون جميع ما قاله المشارقة يقف امام ما قاله الاندلسيون . ونسوا بذلك شيئا واضحا ، هو ان عمر الاندلس الادبي اقل بكثير من عمر المشرق ، فالادب الجاهلي مثلا ادب مشرقي ، وادب صدر الاسلام وعصر بني امية ادب مشرقي ، وادب السنين الاولى لعهد بني العباس ادب مشرقي ايضا ، ولكنها كلها لا تدخل في باب الموازنة ، لامر واضح ، هو أن ادب الاندلس الى اوائل عهد بني العباس لم يكد يولد بعد . وعلى ذلك فهو حفيد لما تقدمه من آداب هذه العصور . واذا اردنا ان نقيم موازنة بينه وبين ادب مشرقي فلتكن الموازنة مع ادب حفيد مماثل . اما الاداب السابقة فهي آباء واجداد للادبين معا . ولا يليق في باب الموازنة العادلة ان يذهب بفخر هذا الميراث الحفيل ، حفيد دون حفيد » .

كذلك اريد ان انوه بما أوضحه من عدم الدقة في رأي من يقولون بأن الموشحات كانت تحللا من قيود القافية في الشعر العمودي ، مبينا ان نظام الاقفال في الموشحات يضيف قيودا الى نظام القافية التقليدية .

وبعد فاننا امام بستان جنى الثمار ، ولن ينقص من قدره ما قد نراه فيه من بعض الحشائش التي نمت حول أزهاره ، او الاشواك التي اكتنفت شهي ثماره .

فباسم مجمع اللغة العربية اهنىء الفائز في هذه المسابقة ، السيد محمد رجب البيومي ، متمنيا له دوام التوفيق .

القاهرة — **محمد مهدي علام**

العازف العجوز

ضرب الليل ناشر الاعلام ... بعبابين من دجى وقتام
فاذا الارض سربلت بركام ... يتدجى بعارض من ركام
والسكون العميق مد جناحا ... دون رحب يمور بالاظلام
لجم الصمت ألسنا عن كلام ... فجرت بالزفير من آلام
واستفاضت جوانح بضرام ... فجرتها لواعج عن ضرام
ان للعين في المصاب لسانا ... من دموع يسيل سيل غمام
بلغ السحر شأوه في فريد ... من نظام ولم يفه بكلام
يفصح الدمع معربا ببيان ... عبقري البيان والاحكام

* * *

جذب العازف العجوز اليه ... بحنان قيثاره وهيام
ضمه مشفقا كضم رؤوم ... لوحيد حذار عادي الحمام
جعل الصدر دون قيثاره المهد ... فالقى قيثاره بزمام
وأتى بالغريب في كل ضرب ... من ضروب الاعجاز والالهام
فاض يجري مسترسلا بلحون ... هي أشهى من بارق الاحلام
فتراها ترق حينا كهمس ... من نجي الضلوع أو كابتسام
وتراها تشتد حينا وتقسو ... كهزيم الرعود دون الظلام
وهي تروي على الشجون وتوري ... مستكن الجوى كجام مدام

* * *

هتف الحشد للعجوز وزاغت ... نظرات من روعة الانغام
سألوه المزيد فاعجب لقوم ... يستميحون طائلا من حطام
حطمت جسمه السنون وهزت ... منكبيه جوائح الايام
ولركب الاعوام ثم سطور ... طبعت في الجبين كالاختام
طفل العازف العجوز بشوق ... مستكن قيثاره وغرام
واستماح الاوتار رفدا فضنت ... بثمام ولم تجد بثمام
عقل العجز ساعدا بعقال ... ورمى كفه بسهم حمام
هم بالعزف جاهدا فثنته ... عن مرام لواعج الاسقام

* * *

صعد العازف العجوز بشجو ... زفرات مشحونة بضرام
ما درى ما يقول والضعف ألوى ... بيمين قد أثخنت بسهام
جمدت لا تسير مثل جماد ... وتراخت أنامل كرمام
كلما راح يستثيب قواه ... مطل العجز فانثنى من سقام
شفه الخطب فاستشاط من الغيظ ... والقى قيثاره لانتقام
فترامت اجزاؤها كشتات ... من جذاذ الخريف في الآكام
وارتمى فوقها يضم بقايا ... لحطام بساعد كحطام

دمشق ... عدنان مردم بك

رابندرنات طاغور

بقلم الدكتور فؤاد جبور حداد
من « العروة الوثقى » في لندن

* * *

قبل ربع قرن كان الشاعر العالمي رابندرنات طاغور لا يزال حيا يرزق في الهند موطنه الاصلي .وكان عند ذاك في سن الحادية والثمانين من عمره . طويل شعر الرأس واللحية ، يبعث منظره في النفس الاجلال والاعجاب . ولكن يكفي أن يدرس المرء شخصية طاغور ويطلع على بعض انتاجه حتى يرسم له في مخيلته صورة لا تقل عن صورته الحقيقية وقارا وروعة .

ولد طاغور ونشأ في أسرة موفورة الحال كريمة الجانب فتعلم منذ صغره اللغات السنسكريتية والبنغالية والانكليزية ولما اصبح رجلا اخذ يتعهد املاك عائلته وأراضيها الواسعة في البنغال وكان لهذه النشأة أثر عظيم في انتاجه اذ لم يكن في حاجة للسعي وراء الرزق ولم يكن ينقصه الوقت او تعوزه الامكانيات والفرص للانصراف بكليته الى النواحي التي كان يميل اليها بطبعه وفطرته .

بدأ طاغور حياته الادبية وهو فتى صغير فكان ينظم الشعر الغنائي الذي عبر فيه عن فرحه العظيم بالحياة بالشمس والاعشاب والنسيم والنهر ، اذ كان يحس في اعماق قلبه بجمال الكون فيسجل احساساته هذه بلغة سهلة بسيطة . اسمعه يقول :

« يقبل الصباح كما تقبل العذراء وهي تحمل في يمناها اكليلا من الجمال لتتوج به هذه الارض .

ويقبل المساء فوق المروج التي تشعر بالوحدة بعد ان تركتها الماشية كما تقبل العذراء وهي حاملة جرة ذهبية ملأتها من محيط الراحة التي غابت فيه الشمس نسيما بليلا من السلام والطمأنينة . »

ولم يقض طاغور حياته كلها في البنغال بل سافر الى اوروبا وانكلترا وامريكا سفرات عديدة تعلم فيها أصول الموسيقى الغربية واطلع على الاداب الاوروبية وتأثر بالشاعر الانكليزي شيلي تأثرا كبيرا.

ولكن طاغور لم يفقد مرحه بالحياة واحساسه بجمالها طوال حياته فكان يقول : « ليست الحياة اموالا او جواهر او لآلىء وليست الحياة حدائق غناء او قصورا شامخة ولكن الحياة كوخ صغير على شاطىء البحر ينيره وجه حبيبي . » ولما ازدادت تجاربه في الحياة أصبح يرى القيود والاغلال القاسية التي تغل اعناق بني الانسان وتمنعهم من التمتع بجمال الحياة ، اغلال الفقر والجهل والظلم الاجتماعي فتولدت عندئذ آراؤه السياسية والاصلاحية وآراؤه الوطنية والانسانية . ويستطيع المرء ان يرى انسجاما تاما بين جميع مشاعره وآرائه كما يستطيع ان يردها جميعا الى مصدر واحد هو ايمانه العميق بوحدة الكون وجمال الحياة وصلاح الانسانية .

اسمعه يقول : « هناك تاريخ واحد فقط هو تاريخ الانسان على الارض اما التواريخ القومية المختلفة فما هي الا فصول في ذلك المجلد الضخم » .

واسمعه يقول : « ليس الانسان عبدا لنفسه او للعالم بل هو في جوهره محب وفي المحبة تكمن حرية الانسان وسعادته ورسالته في الحياة » .

كان طاغور وطنيا متحمسا لبلاده ولكن شعوره الوطني كان في الواقع شعوره الانساني مطبقا على الهند . وقد نظم قصائد كثيرة في هذا الباب ولكن يمكن اعتبار جميع تلك القصائد قصائد انسانية . . . ومن ابرز قصائده الوطنية تلك التي اتخذتها الهند الان نشيدها القومي . . انها صلاة حارة صادرة من قلب الشاعر الى خالق هذا الكون تلتمس منه ان يوصل بلده بعنايته الى هذه المرتبة المثالية من الرفعة والسمو فيقول : «حيث تكون المعرفة حرة من كل قيد ، حيث يكون العالم وحدة لا تجزؤها الاعتبارات المحلية الضيقة ، حيث تصدر الكلمات من اعماق الصدق ، حيث يمد النضال الذي لا يكل ولا يتعب ذراعيه ليعانق الكمال ، حيث لا يضل التعقل طريقه فيصبح كجدول صاف تائه في صحراء من العادات الميتة ، حيث ينقاد العقل اليك فتقوده الى افق دائم الاتساع من التفكير والعمل ، في ذلك الفردوس من الحرية اجعل بلادي تستيقظ يا الله » .

كان طاغور يحس بما في وطنه وما في العالم بأسره من ظلم اجتماعي فكان ذلك يثير في نفسه مشاعر كثيرة كشعور الكره لجبن الضعيف وشعور المقت لغرور القوي ولكنه كان دائما يؤيد الضعيف بكل قلبه وقدرته .

اسمعه يقول : « يحق لمن يسيرون في طريق الفطرسة فيدوسون في طريقهم ارواحا كثيرة غضة ويتركون وراءهم فوق بساط الارض الاخضر آثارا ملطخة بالدماء لاقدامهم . يحق لهم ان يفرحوا لان اليوم يومهم . ولكني اشكرك يا الله لاني لست من هؤلاء . أشكرك لاني اقف مع المستضعفين الذين يحملون نير السلطان ويخفون آلامهم ودموعهم في ظلام الليل . ان كل انة من اناتهم نبضة في جسم ليلك العميق وكل امانة تقذف في وجوههم يصيبها ويحفظها سكونه الرهيب الشامل . ولكن المستقبل لهم .

اخذ طاغور ينظم ويكتب باللغة الانكليزية وهو في سن الخمسين وقد منح جائزة نوبل للاداب بعد ان اصدر بالانكليزية كتابه المسمى Gitingalo الذي تضمن عددا

وافرا من اشعاره الصوفية وكانت هذه أول جائزة من جوائز نوبل تمنح الى رجل آسيوي . اما طاغور فقد خصص المبلغ الذي قدم له وهو حوالي عشرة آلاف جنيه لبناء مدرسة في الهند تسير على احدث النظم التعليمية وتغرس في طلابها مبادىء طاغور وهي المثالية والاخوة الانسانية والسبب الذي حدا بطاغور الى بناء هذه المدرسة هو اعتقاده ان في عالم مثل العالم الذي نحن فيه تمزقه الاضطرابات الاقتصادية والمنازعات السياسية يحتاج الناس اكثر من اي وقت آخر الى الفنانين المبدعين ، الى الادباء والشعراء والموسيقيين فهؤلاء لهم نظرة عالمية ويشعرون برسالة نحو الانسانية جمعاء فيكونون كالاشجار تستمد مادتها من المكان التي تعيش فيه ولكنها مع ذلك تستنشق الهواء العالمي .

لقد تميز طاغور بمزجه الرائع للثقافات الاسيوية في الاوروبية والقديمة في الحديثة . وافكار طاغور كما قال احد الكتاب الكبار هي نتاج التربة البنغالية كما ان المانجو نتاج الشواطىء الخصبة بالبنغال .

لم يكن الشعر السبيل الوحيد الذي وجدت فيه عبقرية طاغور منفذا تعبر فيه عن نفسها بل نراها تتدفق قوية مؤثرة في الموسيقى والرسم والقصص وفي التمثيليات المسرحية .

وقد وضع طاغور روايات مسرحيات كثيرة هي من النوع الرمزي الفنائي التي تعالج كل منها مشكلة من المشاكل الاجتماعية الكثيرة المنتشرة في الهند كسوء توزيع الثروة مثلا . ففي احدى رواياته يظهر طاغور سيدا شابا وهو يؤنب خادمه العجوز لانه جاء متأخرا في الصباح فلم يهيء له حماما ساخنا عند مغادرته الفراش ولم يتعهد كمالياته العديدة الاخرى . فيجيب الخادم كمن يظهر سبب تأخره فقط دون ان يعتقد انه يقدم عذرا على الاطلاق « لقد ماتت ابنتي الوحيدة في الليلة الماضية » ثم ينصرف ذليلا ليستأنف اعماله كالمعتاد .

كان طاغور يكثر احيانا من القطع الغنائية في تمثيلياته فتصبح اقرب الى الاوبرات منها الى التمثيليات العادية وقد ترجمت حوالي عشر منها الى اللغة الانكليزية .

ان التعرض لفلسفة طاغور يدخلنا في صميم الفلسفة الهندية فدين طاغور – كما قال بنفسه – هو دين الانسان او بالاصح دين الشاعر لانه يقوم على مبدأ ان كل ما في الكون من انسان وغير انسان وحدة او حقيقة واحدة كبيرة . وقد اوضح طاغور في كتاب السادهانا (كنه الحياة) كيف تختلف نظرة الهند الى الحياة عن نظرة الغريب اليها فقال :

« نستطيع ان ننظر الى الطريق نظرتين مختلفتين – الاولى ان نعتبر الطريق فاصلا بيننا وبين غرضنا الذي نريد، في هذه الحال نعتبر كل خطوة نخطوها على الطريق انها شيء حصلنا عليه في وجه العقبات . والثانية نراها موصلة الى غرضنا فكأنما هي جزء من غايتنا وكأنها بدء لوصولنا اليها .. هذه النظرة الاخيرة هي نظرة الهند للطبيعة . »

واختتم الان هذه الكلمة الموجزة عن حياة رجل آسيوي هندي هو من اعظم رجال الادب في التاريخ بترجمة احدى قصائده الجميلة التي ودع فيها الحياة قال:

« اعرف انه في نهاية يوم ما ستودعني الشمس وداعها الاخير وبينما تتحول ايامي الى ظلام سيظل الرعاة يعزفون الحانهم تحت اشجار التين كما يفعلون الان وستظل الماشية ترعى على جوانب النهر . وكل ما ارجوه هو ان اعرف قبل ان ارحل لماذا عانقتني الارض بذراعيها ولماذا حدثتني ليلها بسكونه الرائع عن النجوم المتلألئة ، ولماذا لمس نهارها احلامي بنوره الساحر فأينعت كالازهار . »

بهذه الروعة من البساطة الاسرة غادرت العالم عبقرية من عبقريات الشرق : رابندرانات طاغور .

لندن — **فؤاد جبور حداد**

في التصوف

وقفت أمام الباب ، والباب مغلق
وفي داخلي الاشواق تهمى ، وتدفق
فلما طرقت الباب ، صاح ملبيا :
من الطارق المسكين ، من ثم يطرق
فقلت : أبي هذا فتاك الى الحمى
يعود ، فهل تحنو عليه وتشفق
وهل تفتح الباب العصيّ ، فانني
الى مجتلى الاضواء ، كم أتشوق
أبي ، هلا فتحت الباب ان لديكم
منابع نور ، بالسماحة تعبق
أبي ، كيف أبقى في الظلام معذبا
أغصّ بدمعي يا حبيب وأشرق
وعبر بحار الصمت اقبل صوته
أشعة فجر في الوجود ترقرق
« أنا يا فتاي الفرّ لم أك مغلقا
بوجهك بابي ، لا ، ولا سوف أغلق»
فبابي مفتوح ، لكل مضيع
يفرّ في تيه الدجى ويشرق
يشرد حينا في الوجود ، فان اتى
فداري أفراح ، وبابي تشوق

شبين القناطر — عبدالمنعم عواد يوسف



بقلم محمود حسن العزب

وضعت يدي على خدي صباح اليوم أحدق في الفضاء عبر النافذة ، وأفكر فيما جرى لعم عبدالحكيم . منذ التحقت بعملي والرجل يلفت نظري اليه في اطار ما يحيط بي . كانت حركته الدائبة مثار انتباهي .. ادق الجرس ـ مثلا ـ فاذا الرجل يسبق الدقات .. ويسبقه لسانه بكلمة « نعم ؟ » .

كان عم عبدالحكيم فريدا بين السعاة .. لا يتلكأ او يتخلف عن تلبية اي نداء .. مع أنك لن تراه الا مشغولا تتسابق الافواه .. والاجراس في طلبه ، ولو كان الجرس معطلا يكفي ان تقول يا عم عبد الـ.... وقبل ان تتم نداءك تجده على عتبة حجرتك مستفسرا عما تريد بصوت خافت يلونه الخجل!

في بعض الاحيان كنت اضيق بسرعته .. وخجله .. وتمنيت لو أخلف مرة .. وتغافل عن ندائي « هات يا عم عبدالحكيم .. شاي.. حاضر » ثم يختفي كأنني لم اطلبه.. يا عم عبدالحكيم مر على الاستاذ حسين .. وهات منه دوسيه .. وقبل ان أتم كلامي .. يسبقني ويقول « حاضر » وابتسم .. هل عرفت يا عم عبده أي دوسيه .. أعني ؟ وأجابني الرجل بطيبته المعهودة : تقصد دوسيه الامس .. سأعطيك ورقة باسم الدوسيه الجديد.. متشكر يا عم عبدالحكيم.»

« الشكر لله يا افندم » .

وغاب الرجل عن عيني ولكن صورته تظهر في لوحة رأسي .. واكتشف ان مظهره العام ليس فيه شيء من الجدة او العناية .. يلبس بدلة عمل مستهلكة اضافت لقامته القصيرة قدرا من التهدل وعدم التنسيق ، وعكست على وجهه الشبيه بلون ماء الفيضان وكنة جديدة .. وشفت احساسا مسالما فيه اعتذار عن شيء ما يخشى ان يحدث منه ، فاذا سمعت ايقاع صوته الخافت مقترنا بانحناءته نحوك ، خيل اليك أنه فريسة حزن مجهول لازمه بعد رحلة زمن ! ولمحته مقبلا بالدوسيه في زجاج النافذة المواجهة للباب ... يخب في مشيته كالنعامة ، ويمسح عن شفتيه آثار حلوى .. ويتلمظ .. لم أكن أدري سر تعلقه بالحلوى لكنه يلوكها في فمه بنشوة طفل حصل عليها بعد نوبة بكاء !

« كيف عدت سريعا يا عم عبد الحكيم ؟ »

« اسرعت الى الدور الاول .. وأحضرت لك ما تريد » .

« ياه .. قل لي .. كم مرة نزلت وطلعت من الصبح على السلالم ؟»

وضم اصابعه ، ونفضها في الهواء ، وتمتم بصوته الخافت : «كثير .. كثير .. يا استاذ ..الكل يطلبني .. ماذا اعمل ؟.. اي خدمة ثانية ؟!»

ولم أدر هل سمعني اشكره ... لكنه ذاب من أمامي .. يستجيب للنداءات المنبعثة من الحجرات حولي . احيانا اضطر عندما تحل نوبة عمل عم عبد الحكيم أن أغلق باب الحجرة ، ولولا ذلك فلن أنهي عملا كافيا في يومي .. اذ تشدني النداءات وهي تلاحق الرجل كسوط شفاف .. أراه يهرول هنا .. ويدلف هناك .. ينظف مكتبا .. يحضر دوسيها .. يلبي كل الطلبات كسيارة تعمل على جميع الخطوط ، وكعادته عند كل محطة ، يستقبل من يناديه بـ «نعم» ويغادره بكلمة «حاضر» وكثيرا ما تشيعه نظرات الشكر .. ولا يراها . « ناولني الدوسيه الفلاني يا عم عبد ..تأخر الشاي يا عم عبدالحكيم .. اذهب للاستاذ فلان .. انزل القسم تحت ... اطلع الدور الثالث .. وهات.»

وأثارني داب الرجل على اطاريه النحيلين .. تتبعته فترة فترة .. أحصيت عدد المرات التي تردد فيها بين حجرات طابقنا وحده .. في خمس دقائق .. وجدتها ثماني مرات .. وقفت في زاوية السلم أطل على فناء المبنى من نافذة .. تهت في عدد المرات التي طوى بها درجات الادوار الثلاثة ، لم أكن مستطيعا ان انقل خطوتي خلفه ـ ربما أفضل ان أصون اطاراتي من البلى ـ لكنه كان يمر علي في وقفتي، ويصر على تحيتي كل مرة بلسانه ويده .

واطمأننت عليه قليلا عندما هبط الى الدور الاول .. وغاب فيه طويلا .. قلت لنفسي .. انه الان يختلس وقتا لراحة اطاريه .. ربما يتناول افكاره .. لكنني لمحت افطاره على المقعد لم يمس .. استبعدت الفكرة الثانية ، همست لنفسي : لا بأس بالفكرة الاولى .. فكيف يظل الرجل يهبط ويصعد الدرجات بلا التفات لاجهاد قدميه ؟!

رن جرس .. ظننت أن «جمعه» الساعي الاخر .. سيحل محله .. لكنه تصامم ، وانسحب بعيدا كأنه غير موجود .. في حالة وجود «جمعه» وحده في «الوردية» .. تقل طلبات الموظفين .. ويؤجلونها أحيانا .. وتتناثر تعليقاتهم في حق «جمعة» وسلوكه . ثم يخفف احدهم من السخط عليه فيقول مازحا : .. («جمعة» يظهر مولود في يوم جمعة .. والجمعة اجازة .. يعني



ان طلبتم «جمعه» ... انتظروا .. جمعـة) .

طال غياب عبدالحكيم .. وخشيت أن يكون تعثر على احدى الدرجات .. هممت ان اسأل عنه .. كثرت دقات الاجراس .. اتجهت ظنون الموظفين الى فكرة الاستياء من عم عبدالحكيم .. كأنه من نمط «جمعة» .. لكن هذه الظنون تبخرت حين تبين انه ارسل خارج المبنى ليحضر افطارا لموظفين في الدور الاول . مع ان به سعاة آخرين !! .

عاد عم عبدالحكيم لاهثا ... لاحظت انه عجوز اكثر مما كنت اقدر له .. لم لا يبقى هنا .. يكتفي بتلبية طلبات قسمنا ؟.. ويجيبني باستسلام ظاهر ورنة كلها طواعية : ماذا اعمل ؟ الكل يطلبني . ومسح بكمه حبات عرق صغيرة متراكمة على جبهته السمراء ، وانهمك في تناول لقيمات من أفطاره .. لكنه لم يتمه حين طلبه رئيس السعاة .

اتجه الى المبنى الاخر لشركتنا في شارع الصحافة لتسلم طلبات عاجلة ، وحمل معه دوسيهات ملونة نبه عليه بأهميتها .. واكد لي عقب عودته انه اجتاز شارع الجلاء بفضل ادعية مختارة يشق فيها .. وراح يحمد المولى على النجاة .. ثم ترك لسانه يصب سخطه على «الاوتوبيس» .. و «الترام» و «المترو» .. كأنها ثالوث اخطار شره يتلمظ للمارة ولم يكن يدري كيف يستوعب شارع كهذا تلك الافواج الصاخبة .. وخيل له ظنه انها مقدمة طوفان .. لا نوح له . ومد الى شفتيه قطعة حلوى جديدة ، وتناسى مخاطرة اجتياز طريق الطوفان ، وانغمس في تلبية كافة النداءات والرجاءات .. وكأنها كانت في انتظاره !!

كان يمضغ الحلوى الجديدة بلذة المدمن .. وسألته عنها .. اجاب منتشيا : من الاستاذ قرنى .. « ولكنها حلوى المولد ؟!» .

« كل سنة وانت طيب يا استاذ .. حد ينسى المولد ؟» .

وهرول مجيبا لنداء .. وفكرت لحظات فيما قال .. ثم شدتني مكالمة تليفونية ، وقمت من فوري واغلقت باب الحجرة .. امنع عن مكالمتي ما خلف الباب من طنين النداء . بعد ساعات سمعت طرقا على باب الحجرة ، وانفرج الباب عن وجه «جمعه» وبيده دوسيه .. وفجأة لاحظت بسمة تتراقص على شفتيه .. خيل الي انها بلا داع .. لكنه كان يلتفت خلفه ، ويثبت ابتسامته .. كان عم عبدالحكيم يرفع كفيه الى أعلى ، ويخبط بهما فخذيه كمن ارتكب ذنبا .. ثم يكرر حركته .. ويبسط يديه الى السماء راجيا ان تنعم عليه بالرحة من الدنيا ومن فيها « .. آه .. لو لم يكن لي اولاد .. لرحلت عن الدنيا .. وتركتها لهم ... » وخالجني شعور بالامس لمشهد الرجل يدق على ركبتيه ، وينحني كفرع شجرة جاف تعابثه ريح قاسية .. ما الحكاية يا «جمعة» .؟.. قسر الانهاك عم عبد الحكيم وجره الى مقعده ، واغفى بلا مقاومة ، وطلبه رئيسه ... عرف أنه نائم .. وسمع عم عبده من يشيع ان رئيسه غاضب ، وسيكتب مذكرة باهماله .. وتصور انه سيجازى بخصم لا محالة .. بل القى احدهم في روعه ــ على سبيل المداعبة ــ انه عرضة للفصل .

كان منزويا في ركن الصالة كأنه هرة تتوقع عدوانا ما .. ويصمت قليلا ثم يهدر نادبا حظه .. متمنيا على الله ان لو كان ترام دهسه .. واستراح .!

ولم يطق اخيرا انزواءه .. هرول الى رئيسه يقسم له بايمان من كل لون .. وملة .. انه غير مهمل .. وان النعاس ــ منه لله ــ خادعه !

ونسي ان يسأل «جمعة» ماذا يمكن ان يتصرف في مثل هذا الموقف مع رئيسه ، مع انه يعرف جيدا ان «جمعة» له طرقه التي يفلت بها حيث لا يستطيع «الريس» أن ينال منه حقا ولا باطلا .

وتحرك الرجل عقب اي نداء كالمكوك .. اوقفته .. طلبت له شايا .. احتساه واقفا !! « ارحم رجليك يا عم عبده .. ربما يداعبونك .. أم انك « غاوي » طلوع ونزول السلالم ؟..» « ماذا اعمل ؟ نصيبي كده .. أكل العيش يا ولدي .. عندي ثلاثة أولاد .. وزوجة .. وام واختين .. لو اقتطع يوم واحد من مرتبي .. لاضطررنا للمبيت بلا عشاء .. وانت سيد العارفين .. المرتب كله « يادوب» ... انت زعلان من السلالم ... هكذا الدنيا .. مرة نطلع .. ومرة ننزل .. ولما يتم الاجل .. لا نطلع .. ولا ننزل .. قل يا رب » !!

ــ قل لي .. لماذا عدت من مبنى الصحافة .. بلا نتيجة ؟؟

ــ لم يرض احد بتسليمي «الشغل» من غير بطاقة !!

ــ واين بطاقتك ؟

ــ في البيت .. اخاف ان تسرق .. لو حملتها !

ــ لكن .. كيف يعرفك الناس ؟

ــ ومن يهمه ان يعرفني ؟

ــ كلنا .. يهمنا أن نعرفك .

ــ الله يحفظك .. حاجة واحدة عرفتها وعرفتني .. السلالم .. لو تعرف كم درجة هنا .. وكم درجة هنا ؟ .. وآه .. عندما اصل آخر درجة يكون نفسي انقطع .. قل يا رب ؟! »

اسندت ظهري الى المقعد ، وامتدت يدي الى جيبي تطمئن على بطاقتي ، وراجعت رقمها فعادة أنساه .. ولم ادر لم فعل زملائي مثلي ؟! .. انسوا انفسهم .. اعني ارقامهم كما نسيت ؟!

انشغلت اياما عن عم عبدالحكيم .. ثم احببت ان اراه .. ضربت الجرس .. لم يلب عم عبده ندائي .. تحركت مشوقا الى معرفة السبب .. وفي ركن ردهة داخلية لمحته يداعب

صبيا صغيرا ، ويمازحه بحركات طفولية ساذجة ، وملامح الصبي تشع بالسرور ، ويطلق ضحكات صافية كأنها الشروق . وعبس الصبي فجأة ، وطلب ماء فهرع عم عبدالحكيم الى «البوفيه» ومر بي.. نسي ان يحييني ، وعاد سريعا في خفة العصفور يحمل كوب الماء وناوله للصبي في ابتهال ، ثم مد يده في جيبه ، واخرج قطعة حلوى .. ناولها له .. اخذها الصبي وجرى نحو والده .. ولم يكن رئيس السعاة كما توهمت .!

واحس عم عبدالحكيم بوجودي.. حياني .. انتظر أن اكلفه بأية خدمة .. ثم اخبرني انه ذاهب الى الصحافة في مأمورية .. ولم تقول لي ذلك يا عم عبده ؟

(احس بالخوف .. فالترام صدم أمس صبيا في شارع الجلاء ... وتنتابني رعشة لمجرد المرور من هناك » .«الاعمار بيد الله يا عم عبد الحكيم») .

« .. ونعم بالله .. لكن يا استاذ .. تستطيع ان تقول لي .. لماذا قدر للصبي ان يموت هكذا ؟.. سمعت هذا السؤال من اثنين عقب الحادثة .. قلت لهما .. ان الموت حق..لكن .. لماذا يموت ؟!وحدقت في الرجل وهتفت : ماذا تقول يا عم عبده .. هذا سؤال كبير .. كيف تعلق بذهنك للآن ؟.. ومع ذلك فانا لا ادري .. انا لا ازيد عنك معرفة في هذا الشأن .. طمئن نفسك فمثل هذه الامور علمها عند ربي..» «ظننت انك تعرف .. فانت استاذ .. و .. »

وقاطعته وهمست لنفسي .. قبله : من يعرف يا عم عبده .. من يعرف ؟!!

تحركت في مقعدي متململا .. انتابني القلق .. فما كان من عادة عم عبده – في تقديري – ان يثير سؤالا على هذا النحو .. وبهذا المستوى .. والآن بالذات حتى ولو كان سمعه من الغير .. وفيم ؟...

في شيء انا نفسي لا استطيع ان اخوض فيه اذا ادعيت انني على شيء من المعرفة .. وحاولت ان اصرف ذهني عن مثل هذه المنطقة من التفكير ... فانا اوثر ان تسير حياتي دون اسئلة خطرة .. ولعلها عقيمة ... لم افتح على نفسي بابا للظنون يمتص من قلبي سكينة الرضا بما أنا فيه .. وعليه ؟!! واستطعت ان اقبر هواجسي .. واثير بنفسي اتجاها آخر .. هذا سؤال من ساع .. وربما القاه على ظاهره .. أيثيرني سؤال ساع الى هذا الحد؟ انه لا يزيد عن ساع وما زالت رواسب التفرقة تغريني على ضرورة التمييز بيننا .

وغادرني الرجل وهو يهمس لنفسه : صحيح .. الله حق .. الموت حق .. استغفر الله .. استغفر الله العظيم .. واتجه ناحية افطاره المنسي ، واقسم على «جمعه» ان يتناول معه الافطار ، واستجاب «جمعه» خوفا على قسمه . واثناء تناول لقمة العيش المشتركة رجاه «جمعه» ان يحل محله في «ورديته» التالية «عشان وراه مشوار» ووافق الرجل في ترحاب .

وعرفت بعد الافطار انه ذاهب الى مبنى الصحافة ، وهد اصراخ الاجراس ، وخفتت حدة النداء لم يعد عم عبدالحكيم في ذلك اليوم، ولم يحفل بذلك الا رئيسه ، والا موظف آخر سجل امام اسمه تغيبه عن العمل دون اسباب .. لكن انقضى يومان آخران .. دون ان يعود ..

وسرى الاهتمام بغيابه بين الجميع حين استفسرت عنه زوجته ..ولم تجد خلال الدهشة المطبوعة على الوجوه من يعرف شيئا عنه .. وعن سر تغيبه .. وانطلقت المراة تولول ، وتندب حظها وتسدد للمجهول قبضات مشنجة ترافق احتجاجها الصارخ الباكي ، وراحت تضم الى صدرها اطفالا لا يفقهون تماما سر امهم النادبة !!. « انا قلبي كان حاسس » .. وخرجت ترددها وتضيف « .. وفضل يبوس في الاولاد .. ما اعرفتش ليه » .

في صباح اليوم .. الثالث منذ اختفائه – التقيت بزملائي في المكتب .. صامتين على غير العادة .هممت ان اضرب الجرس مؤملا ان عم عبد الحكيم قد عاد .. لا بد انه قد عاد .. كنت آمل عودته .. وبي رغبة ان استقبل يومي بتحيته ودعواته الطيبة ..

واشاروا لي .. سحبت اصبعي عن الجرس .. لوح احدهم بيده وهمس : لا داعي .. مات الرجل كان يجتاز شارع الجلاء في طريق عودته من المبنى الاخر ، صدمه المترو .. ولم يجدوا في جيبه ما يثبت شخصيته .. ولم يعرف انه هو طوال هذه الايام الا الليلة امس بعدما طال التحري .. وكان قد دفن في مقابر الصدقات .

لفني الصمت فجأة ، وتسمرت في جلستي ، ووضعت يدي على خدي احدق عبر النافذة ، واتأمل صفحة السماء .. تنهدت تنهيدة طويلة ، وما زلت مسمرا في مكاني.. وحولي زملائي يخوضون في سيرته .. يعيدون ظروف الحادث .. يترحمون عليه .. يتذكرون اولاده .. وبقيت وحدي صامتا .. وخلال صمتي لمحت وجه «جمعه» يطل علينا من الباب ، وما زلت ساهما احدق في صفحة السماء ، ولم اكن ادري ماذا اريد منها !!!

القاهرة **محمود حسن العزب**

من اعلام الفكر والادب في فلسطين

الحاج محمد امين الحسيني

بقلم البدوي الملثم

* * *

ولد سماحته في محلة الواد ، أحد أحياء بيت المقدس عام ١٨٩٧ وحفظ القرآن وأنهى دراسته الابتدائية في المدرسة السلطانية بالقدس ودرس العلوم الشرعية واللغة العربية على أساتذة خصوصيين وتعلم الفرنسية في مدرسة الفرير بالقدس ثم التحق بالازهر الشريف وأكمل دراسته في صحنه على الشيخين القاياتي والمطيعي واكثر من التردد على دار الدعوة والارشاد لمؤسسها المرحوم العلامة السيد محمد رشيد رضا صاحب «المنار» وكان يحضر الدروس والمحاضرات في كلية الآداب بالجامعة المصرية (جامعة القاهرة اليوم) وخلال دراسته في مصر كان دائم الاتصال بالعاملين في الحقلين العربي والاسلامي ، يسمع منهم ويأخذ عنهم ويتبادل واياهم الآراء في الشؤون العربية والاسلامية التي تؤدي الى نهضة العرب والمسلمين وحريتهم وانقاذهم من براثن الاستعمار الاجنبي .

وفي مصر راح سماحته يتردد على دار الدعوة والارشاد ليتلقى دروسا تتسم بالتوعية والاصلاح على السيد رشيد رضا والدكتور محمد توفيق صدقي أحد العلماء الباحثين في الاصلاح الاسلامي وانضم سماحته الى « الجامعة العربية » وهي جمعية سياسية كانت لها فروع في امهات المدن العربية .

الى الاستانة : وعندما اعلنت الحرب العالمية الاولى في عام ١٩١٤ عاد سماحته الى القدس ومنها الى الاستانة حيث التحق بالمدرسة الحربية فتخرج ضابطا احتياطيا واشترك في معارك شناق قلعة بالدردنيل ثم نقل الى أزمير على الابيض المتوسط ومنها الى البلقان

في صفوف الثورة العربية : ولما اعلن المغفور له الحسين بن علي الثورة العربية على الترك صمم الامين مع نفر من الضباط العرب على الهرب الى الحجاز للالتحاق بالجيش العربي وجرى الحادث الطريف التالي :

عندما هم سماحته بالفرار دخل المستشفى العسكري في الاستانة وهناك تعرف على رجل طيب القلب دمث الخلق هو المرحوم يوسف ابراهيم المنير (من القدس اصلا) معاون رئيس الاطباء وراح يشكو ألما مبرحا !

وخلال مرض سماحته جمد المسؤولون الاتراك اجازات الضباط والجنود العرب وأسرفوا في الاعتقالات ونصبوا أعواد المشانق في ساحات دمشق وبيروت لكن السيد المنير تمكن من الحصول على وثيقة رسمية تخول الضابط الحسيني السفر الى القدس في مأمن من الاعتقال وعندما هم السيد المنير بوداع الضابط الشاب أوصاه خيرا بأسرته التي تركها في بيت المقدس ولا يعلم من أمورها شيئا .

وبعد أن بلغ الضابط الامين مسقط رأسه شرع في البحث عن الاسرة وبعد جهد بذله وجد الزوجة قد لحقت بربها وخلفت صبيا (١) وانثى فنقلهما الى داره واحاطهما بضروب العناية والرعاية والحقهما بالمدرسة وكانا يقضيان عطلة الاسبوع في بيت سماحته ، وظلا على هذه الوتيرة الى ان قامت الثورة الفلسطينية الاولى في عام ١٩٢٠ فحكم على سماحته بالسجن عشر سنوات وبالاشغال الشاقة. غير أنه بارح القدس سرا الى دمشق واناط بابن عمه المرحوم جميل الحسيني العناية بالصبي وشقيقته .

وبعد أن سكنت نأمة الحرب العالمية الاولى عاد السيد يوسف ابراهيم المنير الى بيت المقدس وحضن ولديه وعندما عاد سماحته الى مسقط رأسه ظل يرعى الصبي وشقيقته بالاضافة الى رعاية والدهما وعطفه .

وفي عام ١٩٢٢ شهدت فلسطين اضطرابات دامية استشهد فيها المرحوم يوسف المنير وعندما تناهى لسماحته نبأ استشهاده حزن عليه حزنا عظيما وادخل فوزي طالبا في كلية «روضة المعارف» بالقدس على نفقته الخاصة ونقله بعدها الى « دار الايتام الاسلامية » وخصص لشقيقيه ولزوجة ابيه راتبا شهريا الى ان تخرج فوزي من «دار الايتام الاسلامية» وعين فيها استاذا .

أول الغيث : يؤثر عن سماحته وهو صبي انه صحب يوما والده المرحوم الشيخ محمد طاهر الحسيني مفتي القدس الاسبق وقصدا قرية قالونية (من ضواحي بيت المقدس) وذات يوم خرج الامين للنزهة مع والدته فرأى اشجارا صغيرة مغروسة حديثا في أراضي القرية فسأل حارسه : « من غرس هذه الاشجار ؟ » فأجابه الحارس بقوله : « غرسها اليهود الطامعون بفلسطين !» وهنا اكفهر وجه الصبي وركض نحو الشجيرات يهم بقلعها وصاح بمن حوله : « أفي عقر دارنا يغرسون أشجارهم ؟ هذا أمر لا يجوز...لا نريد علجا في بلدنا المقدس الطهور!»

وعندما عاد الحارس الى والد سماحته قص عليه ما فاه به الامين وهنا استدعاه والده وسأله : « مالي أراك مكفهر الوجه يا أمين ؟ وعلام باقتلاع شجيرات غرسها جيراننا اليهود ؟ وأي جرم اقترفوه لتستأصلها ؟ » فأجابه الامين : « انهم ليسوا جيراننا ... انهم غزاة طامعون ببلادنا ! ».

أثرت هذه العبارة في نفس الوالد الشيخ تأثيرا بالغا وراح يفكر بالفتى الصغير وازداد اهتماما بأمره ، وذات ليلة حلم الوالد الشيخ حلما مزعجا حول أولاده ، ولما استيقظ من نومه قال لزوجته : « أخشى أن تكون أيامي قد قربت .. اوصيك خيرا بأمين وارجو ان توليه عنايتك وتضاعفي رعايتك له !».

ولتقف على جهود سماحته وصراعه في سبيل نصفة فلسطين ودفع عوادي السياسة عنها . ولتلم بجهاده المتواصل في محاربة المخطط الصهيوني واحباطه والحيلولة دون تهويد الاراضي المقدسة نواكب أعمال سماحته سنة فسنة منذ الاحتلال البريطاني حتى وقوع النكبة وضياع الوطن المغصوب !

عام ١٩١٩ : بعد ان وضعت الحرب العالمية الاولى أوزارها عاد سماحته الى فلسطين ليستقبل عهدا جديدا من الكفاح والنضال في سبيل وطنه المغلوب على أمره وفي سبيل الامة التي تحدر منها وعدا عليها الاستعمار الاوروبي الغشوم وليعمل بصورة خاصة على مقاومة الانتداب البريطاني ووليده « وعد بلفور » الذي نص على اقامة وطن قومي يهودي في فلسطين وليقود الحركة الوطنية الفلسطينية وسط تيار السياسة الاجنبية الخطيرة وليقاوم الحركة الصهيونية العالمية مقاومة لا تعرف هوادة ولا تخضع لأية مؤثرات !

وبعد أن قامت في القدس وسائر المدن الفلسطينية تظاهرات عنيفة نجم عنها اضطرابات دامية بين العرب واليهود اتهم المستعمرون سماحته والاستاذ عارف العارف وبعض العاملين في الحقل القومي باثارتها فحكمت السلطات البريطانية العسكرية على سماحته بالسجن عشر سنوات مع الاشغال الشاقة لكنه تمكن من الفرار الى دمشق واشترك في « المؤتمر السوري » الذي أعلن استقلال سورية الطبيعية ولبث فيها الى ان احتلتها فرنسا وقضت على الحكم العربي الفيصلي فانطلق سماحته الى بادية سورية واقام فيها مدة كان خلالها على اتصال وثيق بزعماء القبائل العربية .

ولما ألغى السر هربرت صموئيل الحكم الصادر على سماحته وعلى الاستاذ عارف العارف تحت الحاح ورجاء زعماء الاردن الذين اجتمعوا

به في مدينة السلط عاد الى بيت المقدس وتولى منصب الافتاء عام ١٩٢١ خلفا لشقيقه المرحوم محمد كامل الحسيني .

عام ١٩٢٢ : وفي هذا العام انتخب سماحته رئيسا للمجلس الشرعي الاسلامي الاعلى وادار شؤون الاوقاف والمحاكم الشرعية الاسلامية ، فاصلح ادارتها ونظم شؤونها وصان أراضي فلسطين من التسرب الى أيدي الصهاينة الطامعين بها وقاوم السياسة الاستعمارية والمطامع الصهيونية أشد مقاومة واضطلع بعبء الحركة الوطنية الفلسطينية وعمل على عقد المؤتمرات الفلسطينية والاسلامية وتشكيل اللجان التنفيذية وارسال الوفود السياسية الى أوروبا والاميركيتين والوفود الاسلامية الى الاقطار الاسلامية واشترك بنفسه في وفود زارت الاقطار العربية والاسلامية لشرح ظلامة فلسطين واستنهاض الهمم لانقاذها من الخطر اليهودي وبراثن الاستعمار البريطاني ودعا الى التبرع لاصلاح المسجد الاقصى ، وكان الانهيار يهدده للتصدع الذي أصاب قبته وجدرانه ، ولما انتهت الاصلاحات جرى احتفال رسمي بحضور وفود من العالمين العربي والاسلامي .

عام ١٩٢٥ : وفي عام ١٩٢٥ اشترك سماحته ، بناء على دعوة تلقاها من الملك عبدالعزيز آل سعود في مؤتمر مكة المكرمة الذي حضره لفيف من زعماء العالمين العربي والاسلامي وكان لسماحته أنبل المواقف فيه .

عام ١٩٢٧ : وفي ربيع عام ١٩٢٧ تنادى نفر كبير من شعراء وزعماء وأعلام العالم العربي لمبايعة الشاعر الكبير أحمد شوقي بامارة الشعر ورأس سماحته الوفد الفلسطيني وكان موضع حفاوة وتكريم مصر شعبا وحكومة وصحافة .

عام ١٩٢٩ : وفي هذا العام قام اليهود بتظاهرة في مكان البراق وهو الجدار الغربي للمسجد الاقصى ، فنشبت في بيت المقدس وسائر المدن الفلسطينية اضطرابات دامية جاءت على أثرها لجنة برلمانية بريطانية برئاسة القاضي السر ولتر شو للتحقيق في الاضطرابات وأسبابها ، ولقد حاول اليهود ومحاموهم الصاق تهمة اثارة هذه الاضطرابات بسماحته فعمدوا الى التزوير وابرزوا للجنة رسائل ملفقة زعموا أن سماحته بعث بها الى بعض رجالات البلاد ليضرموا نار الثورة ويؤججوا اوارها ، لكن اللجنة آمنت بتزوير الرسائل وأصدرت قرارها لمصلحة العرب .

وكشف التحقيق الذي قامت به هذه اللجنة البريطانية المحايدة عن ان اليهود حاولوا رشوة سماحته بنصف مليون جنيه استرليني ليفرط بحقوق شرعية ليست لهم في مكان البراق الشريف.وفي تحقيق اللجنة عن أسباب فتنة «المبكى» سئل سماحته السؤال التقليدي الذي يوجه عادة لكل متهم في عرف القضاء البريطاني : « أمذنب أنت ؟ » فرد سماحته بقوله : « على مدى خطوات معدودات من هذا المكان حكم على السيد عيسى بن مريم ... وما كان سيدنا عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام مذنبا !» .

عام ١٩٣١ : وبهمة لا تعرف اليأس والكلل أخرج سماحته القضية الفلسطينية من نطاقها المحلي ، الذي كانت السياسة البريطانية — اليهودية المشتركة تحاول حصرها فيه ، الى نطاقها العربي — الاسلامي الواسع ، ونجح في ذلك الى أبعد الحدود ، وفي سبيل ذلك دعا الى عقد مؤتمر اسلامي كبير في بيت المقدس حضره مندوبون من كافة الاقطار العربية والاسلامية للنظر فيما يهدد فلسطين من مطامع اليهود الدينية في المسجد الاقصى ومطامعهم السياسية في تهويد فلسطين ، وانتخب المؤتمرون سماحته رئيسا للمؤتمر واتخذوا قرارات هامة كان لها دوي عظيم في العالمين العربي والاسلامي .

والجدير بالذكر ان الصهيونية العالمية البث صنائعها على هذا المؤتمر للحيلولة دون عقده لكن حنكة سماحته فوتت عليهم هذا المسعى ، وأفسد بعد نظره المخطط الذي أعده خصوم العرب لاحباط المؤتمر . ولقد كتب الكثيرون من المستشرقين عن هذا المؤتمر ومنهم المستشرق جب احد أساتذة جامعة لندن والمستشرق الفرنسي ماسينيون أحد اساتذة كولج دي فرانس بباريس !

وفي عام ١٩٣١ قام سماحته مصحوبا بالمغفور له محمد علي علوبه (باشا) برحلة الى العراق وايران والهند والافغان وبلوخستان للعمل على انشاء جامعة اسلامية في بيت المقدس باسم « جامعة المسجد الاقصى » فقوبل المشروع بالتاييد والتحبيذ لكن السياسة البريطانية أجهزت عليه في مهده .

وفي هذا العام توفي مولانا محمد علي الزعيم الهندي المسلم وهو في لندن الى جانب الزعيم الهندوسي المهاتما غاندي فاصر سماحته على دفنه في الحرم القدسي الشريف ايمانا من سماحته بان مسلمي الهند يفتدون الاراضي المقدسة بالمهج والارواح .

وباصرار من سماحته دفن المغفور له الملك حسين بن علي في الحرم القدسي تكريما لموقف الثائر الاول من القضية الفلسطينية وهو الذي تنبه لما بييته الخصوم لها فابى التوقيع على صك عبوديتها .

عام ١٩٣٤ : وفي هذا العام نشب خلاف بين السعوديين واليمنيين على حدود البلدين فتلاحمت جيوش الطرفين وهب العالمان العربي والاسلامي لدعوة العاهلين السعودي واليمني الى نبذ الحرب، وسعى سماحته ، بوصفه رئيسا للمؤتمر الاسلامي ، الى تاليف وفد للسلام بين البلدين الشقيقين فنجح في مسعاه وكان قوام الوفد سماحته وهاشم الاتاسي ومحمد علي علوبة (باشا) والامير شكيب ارسلان وعبد الرحمن عزام . وبعد ان بلغوا السعودية واليمن حقنت الدماء وعاد الود والصفاء الى سابق عهدهما .

وفي هذا العام دعا سماحته الى عقد مؤتمر لعلماء فلسطين حضره (٤٠٠) عالم وبحثوا بيوع الاراضي في فلسطين وأفتوا بحرمان من يبيع أو يسمسر أو يسهل بيع أية أرض لليهود من الصلاة عليه ودفنه في مقابر المسلمين .

عام ١٩٣٦ : ولما نشبت الثورة الفلسطينية الكبرى وعقبها الاضراب العام الشامل انتخب سماحته باجماع الاحزاب الفلسطينية لرئاسة « اللجنة العربية العليا » التي أدارت دفة الثورة في البلاد وغذت العمال والبحارة . وبعد أن تدخل ملوك العرب وامراؤهم في حل الاضراب وانهاء الثورة في نداء وجهوه لسماحته وفيه وعدوا بأن تعمل بريطانيا على انصاف العرب لكن حدث أن وضعت لجنة اللورد بيل تقريرها المتضمن تقسيم فلسطين بين العرب واليهود .

عام ١٩٣٧ : وفي هذا العام حاولت السلطات البريطانية القاء القبض على سماحته بقوات كبيرة طوقت دار « اللجنة العربية العليا » لكنها فشلت بالقبض عليه اذ قيض لسماحته النجاة والاعتصام بداره داخل الحرم القدسي الشريف مدة أربعة شهور ، وخلال ذلك القت السلطات البريطانية القبض على اعضاء «اللجنة العربية العليا» ونفتهم الى سيشل (في المحيط الهندي) وتمكن سماحته من مبارحة القدس سرا الى يافا ومنها نزح الى لبنان في زورق بخاري وأقام في بلدة ذوق مكايل ومنها كان يزود الثورة الفلسطينية بالرجال ويغذيها بالوقود.

عام ١٩٣٩ : وبعد أن نشبت الحرب العالمية الثانية ضغطت بريطانيا على فرنسا لتسليمها سماحته . وبعد ان اشتد ضغطها غادر سماحته لبنان سرا الى بغداد مع نفر من المجاهدين الفلسطينيين وأقاموا فيها حوالى عام ونصف العام الى ان نشبت ثورة العراق عام ١٩٤١ برئاسة رشيد عالي الكيلاني فشارك سماحته فيها ضد التدخل العسكري البريطاني ولما منيت بالفشل وأوشك البريطانيون على احتلال العراق اضطر سماحته الى النزوح الى ايران متخفيا مع عدد من المجاهدين الفلسطينيين والسوريين والعراقيين .

ولما وقعت ايران في قبضتي بريطانيا وروسيا تعقبت الاولى سماحته وأعلن الماريشال ويفل جائزة قدرها ٢٠ الف جنيه لمن يدل

عليه لكن الباري تعالى سهل لسماحته سبيل النجاة فبلغ ايطاليا سرا ، بعد ان رفضت تركيا قبوله لاجئا سياسيا خشية غضب الانكليز ونقمتهم.

ومنذ عام ١٩٤٥ استقر سماحته في باريس ومنها نزح الى برلين ومن اذاعة عاصمة الرايخ اذاع احاديث سياسية من شأنها اذكاء نار النقمة على الانكليز ، واثر خروجه من المانيا ، بعد انهيار دولتي المحور، اعتقلته السلطات الفرنسية ، ورغم الحراسة الشديدة تمكن من مغادرة فرنسا سرا ، وفي ٢٩ أيار ١٩٤٦ بلغ مصر خفية وكان هبوطه على حين غرة حدثا ترك دويا عالميا .

ولما لاذ بمصر قامت السلطات البريطانية تطالب بالقبض عليه لكن مصر الكريمة لم تسمح بذلك ، ولما يئس الانكليز من تسلمه وتحديد اقامته في احدى الجزر النائية ، كما كانوا يريدون ، شددوا على السلطات المصرية للحد من أي نشاط سياسي يقوم به سماحته ومنعه من مبارحة مصر الى أي مكان آخر ، واضطر المرحوم اسماعيل صدقي (باشا) رئيس الوزراء عهد ذاك لان يتعهد رسميا بذلك . وفي القاهرة رأس سماحته «الهيئة العربية العليا» وشرع يعمل لقضيتها قبل نشوب الحرب الفلسطينية ووقوع النكبة الرهيبة .

عام ١٩٤٧ : وفي خريف هذا العام حاول سماحته السفر الى فلسطين لكن السيد عبدالرحمن عزام الامين العام السابق لجامعة الدول العربية طلب من سماحته باسم المصلحة العامة ومصلحة القضية الفلسطينية التريث وقال لسماحته : « ان ذهابك الى فلسطين في الظرف الحاضر سيكون سببا في تحول المعركة المتوقع نشوبها بين العرب واليهود الى معركة بين العرب والانكليز واليهود معا ، وعندما ينتهي انتداب بريطانيا على فلسطين في ١٥ ايار ١٩٤٨ لا يحول احد دون سفرك !» .

لكن سماحته لم يقنع بهذا القول بل صمم على المضي في خطته ، وبينما كان يتاهب للسفر الى فلسطين زار سماحته الاستاذ كامل عبد الرحيم وكيل وزارة الخارجية المصرية عهد ذاك وأبلغه ان الوزير المفوض في السفارة البريطانية بالقاهرة زار وزارة الخارجية المصرية حاملا لها من السفير البريطاني بالاحتجاج الشديد على ازماع سماحته السفر الى فلسطين وان السفير طلب من الحكومة المصرية ان تحول دون ذلك ، فاضطر سماحته للبقاء على مضض لكيلا يسبب حرجا للحكومة المصرية التي كانت في ذلك الحين تقوم بمفاوضاتها مع الحكومة البريطانية بشأن القضية المصرية ، معللا النفس بقرب حلول فرصة مؤاتية !

كان هذا قبل نشوب معركة فلسطين ثم شرع سماحته وبعض اعضاء «الهيئة العربية العليا» الذين كانوا يعملون معه خارج فلسطين في اعداد العدة للسفر فور انتهاء الانتداب البريطاني الذي أوشك ان يحل موعده المقرر ، وسافروا الى دمشق واختاروا المكان الذي عولوا على الاقامة به في فلسطين ، كما أعدوا ما كانت تقضي به الضرورة من الوسائل واللوازم .

عام ١٩٤٨ : وفي ١٤ أيار ١٩٤٨ بينما كان سماحته وصحبه على وشك السفر فوجئوا بضغط بريطاني شديد على بعض الدول العربية وعلى الجامعة العربية للحيلولة دون سفر سماحته ، فطلب عدد من رؤساء وزارات تلك الدول ووزراء خارجياتها ورجال الجامعة بقاءه في سورية قائلين : « ان ذهابك الان والجيوش العربية على وشك خوض المعركة سيحبط خطة انقاذ فلسطين ويفرق كلمة الدول العربية وستتحمل وحدك مسؤولية فشل هذه الحركة المباركة التي ستحرر فلسطين وتنهي قضيتها بالفوز المبين !» .

ولما رأوا من سماحته الاصرار على سفره الى فلسطين طلبوا من السيد شكري القوتلي رئيس الجمهورية السورية حينذاك أن يفاتح سماحته بالامر ، ففاتحه وطلب منه باسم مصلحة فلسطين ارجاء سفره.

فلما رأى سماحته ان لا سبيل للسفر الى فلسطين بارح دمشق الى القاهرة في ٢٢ ايار ١٩٤٨ ولما بلغها هاتفه السيد احمد محمد خشبه (باشا) ، وكان يومئذ وزيرا للخارجية المصرية ، وضرب لسماحته موعدا عاجلا لمقابلته في سراي الزعفران التي كان يقوم فيها بمفاوضاته مع السر رونالد كامبل السفير البريطاني بشأن السودان واعلمه بأن رسولا خاصا من عمان وصل الى القاهرة يحمل رسالة الى الملك فاروق وفيها تحذير من سفر سماحته الى فلسطين .

وتلا هذا اللقاء لقاء آخر مع السيد ابراهيم عبد الهادي رئيس الديوان الملكي المصري وقتئذ وأبلغ سماحته طلب الملك السابق بقاءه في مصر لان سفره الى فلسطين يلحق بقضيتها ضررا كبيرا ويصيب وحدة جبهة الدول العربية التي تقوم اليوم لانقاذها بالتصدع ، وحذر سماحته من مغبة سفره .

الى غزة : وازاء هذه المحاذير اضطر سماحته الى التريث قليلا لكنه صمم على السفر في أول فرصة . ومساء الاثنين الواقع في ٢٧ أيلول ١٩٤٨ سافر الى فلسطين مستعينا ببعض الضباط الاحرار المصريين وغيرهم ، وبارح القاهرة خفية رغم ما اتخذته السلطات المصرية القائمة حينذاك من وسائل المنع وحراسة الطرق المؤدية الى سيناء وحدود فلسطين .

وفي صبيحة اليوم التالي بلغ سماحته وصحبه غزة هاشم وأقاموا فيها فترة قصيرة انعقد خلالها «المجلس الوطني الفلسطيني» وتألفت فيها «حكومة عموم فلسطين» وشرع مع اخوانه في تنظيم المجاهدين الفلسطينيين وتجهيزهم وتجنيد جميع القادرين منهم على الجهاد في كافة المدن والقرى الفلسطينية التي لم يحتلها اليهود ، من رفح الى جنين ، وقد خفت وفود البلاد والمجاهدون من سائر انحاء فلسطين الى غزة استعدادا لاستئناف الكفاح والجهاد ضد العدو .

وفي الخامس من تشرين الاول ١٩٤٨ وصل الى غزة اللواء السابق حسين سري عامر الذي كان مديرا لسلاح الحدود وزار سماحته في غزة وأبلغه رسالة من محمود فهمي النقراشي (باشا) رئيس الوزراء حينئذ وكلفه العودة الى القاهرة لضرورة ماسة ، وزاد حسين سري عامر على ذلك بان مزاحم الباجه جي رئيس وزراء العراق ومحسن البرازي وزير الخارجية السورية موجودان في القاهرة ويرغبان في لقاء سماحته ومحادثته في شؤون هامة تتعلق بالقضية الفلسطينية ، لكن سماحته اعتذر عن السفر وأوضح ضرورة بقائه في غزة لتنظيم أمر الجهاد .

وفي السادس من تشرين الاول ١٩٤٨ ابلغ حسين سري عامر سماحته ان النقراشي (باشا) يريد محادثته هاتفيا فالح عليه بالحضور حالا قائلا ان الضرورات السياسية والعسكرية تقضي بذلك . وخشية ان يقع صدام مسلح بين القوات المصرية والمجاهدين الفلسطينيين يمم سماحته القاهرة في قافلة عسكرية فوصلها ظهر ٧ تشرين الاول وبعد وصوله زيدت الحراسة على بيته في القاهرة وحيل بينه وبين العودة الى فلسطين .

وبعد انتهاء الحركات الحربية في منطقة غزة وابرام هدنة رودس طلب سماحته السماح له بالاقامة في هذه المنطقة فلم يسمح له المسؤولون بذلك ومنع ، كما منع اعضاء «الهيئة العربية العليا» في بعض البلاد العربية من زيارة مخيمات اللاجئين بداعي ان الزيارة تستثير حماستهم.

عام ١٩٥١ : وفي هذا العام رأس سماحته مؤتمر العالم الاسلامي المنعقد في كراتشي وحضره ممثلون عن ٤٥ دولة عربية واسلامية .

عام ١٩٥٢ : وفي هذا العام رأس سماحته مؤتمر العلماء المسلمين المنعقد في كراتشي أيضا وحضره عدد من علماء المسلمين .

عام ١٩٥٥ : وفي هذا العام شد سماحته الرحال الى مؤتمر باندونغ على رأس وفد فلسطيني وكان لشخصه أثر بارز في حمل

---

(١) هو الاريحي السيد فوزي يوسف صاحب «مكتبة الاندلس» في بيت المقدس .

المؤتمر الاسيوي الافريقي على بحث القضية الفلسطينية واتخاذ القرارات الملائمة بصددها .

عام ١٩٥٩ : وفي هذا العام انتقل سماحته من القاهرة الى بيروت واتخذها مقرا لنشاط «الهيئة العربية العليا» و «مؤتمر العالم الاسلامي» وتمكن من بعث قضية فلسطين في المحافل الدولية وفي الاوساط الشعبية ، وأوفد عدة وفود فلسطينية الى الامم المتحدة والى الاقطار الاسيوية والافريقية والى مختلف دول اوروبا والاميركيتين لشرح قضية فلسطين والكشف عن ظلامتها . وفي خريف هذا العام لبى سماحته دعوة الملك محمد الخامس عاهل المغرب السابق على رأس وفد فلسطيني وزار كذلك تونس وليبيا داعيا لنصرة فلسطين ودعم قضيتها العادلـة .

عام ١٩٦١ : وفي ربيع هذا العام زار سماحته الهند تلبية لدعوة المرحوم طاهر سيفالدين سلطان البهرة السابق لافتتاح « الجامعة الاسلامية » في مدينة سورات وشرح سماحته للشخصيات الاسلامية البارزة التي حضرت حفلة الافتتاح ما تعانيه فلسطين من جور الدول الاوروبية الضالعة مع الصهيونية ، ثم زار كراتشي وبحث مع زعمائها موضوع عقد المؤتمر العالمي الاسلامي من أجل نصرة القضية الفلسطينية ثم زار الديار الحجازية المقدسة وأدى فريضة الحج واتصل بزعماء العالم الاسلامي لبحث المشكلة الفلسطينية وغيرها من قضايا العالم الاسلامـي .

وفي خريف هذا العام زار سماحته الجزائر على رأس وفد فلسطيني تلبية لدعوة حكومتها في عهدها الاستقلالي احتفالا بمرور ثمانية أعـوام على اعلان الثـورة الجزائريـة .

عام ١٩٦٢ : وفي صيف هذا العام رأس سماحته مؤتمر العالـم الاسلامي الذي انعقدت دورته الخامسة في بغداد وحضره مندوبـون عن ٣٧ قطرا اسلاميا وأعيد انتخاب سماحته رئيسا لهذا المؤتمر ،وكذلك اشترك في «مؤتمر الرابطة الاسلامية» المنعقد في مكة المكرمة في موسم حج عام ١٩٦٢ بوصف سماحته احد مؤسسي هذه الرابطة .

عام ١٩٦٣ ـ ٦٤ : وخلال هذا العـام زار سماحته سوريـة والسعودية وقام برحلة الى ماليزيـا تلبيـة لدعوة المؤتمر الاقليمـي لمسلمـي ماليزيـا .

عام ١٩٦٤ ـ ٦٥ : وفي الفترة الواقعة بين اعقاب عـام ١٩٦٤ ومطلع عام ١٩٦٥ رأس سماحته مؤتمر العالم الاسلامي الذي عقد دورته السادسة في مقديشو (عاصمة الصومال) .

ضياع فلسطين : حدد سماحته المسؤول الاول عن ضياع فلسطين بقولـه :

« ان مسؤولية ضياع الجـزء الاكبر مـن فلسطين تعود الـى عامليـن رئيسيين :

الاول : خارجي يتمثل في المؤامرة الاستعمارية الصهيونية المبيتة التي أملتها مصالح الصهيونية والاستعمار المشتركة لضرب الامة العربية بالاستيلاء على فلسطين خطها الامامي وتتركز هـذه المسؤوليـة في بريطانيا والولايات المتحدة الاميركية بوجه خاص .

الثاني : داخلي ويتمثل في تخاذل البلاد العربية وتقصيرهـا في تقييم خطورة هذه المؤامرة على مصير الامة العربية باسرها وتفرق كلمتها وشحها في البذل وتأثير النفوذ الاستعماري على بعضها ، ممـا جعلها عاجزة عن حشد طاقات الامة العربية الكبيرة وثرواتها الوفيـرة التي كانت كفيلة بان تحبط كيد الصهيونيين واهدافهم في فلسطين .

الطريق الى تحرير فلسطين : يرى سماحته ان الطريق العملـي لتحرير فلسطين هو طريق الكفاح الجدي الذي سلكـه جميع الشعوب في سبيل حريتها وسيادتها في أوطانها ، وقضية فلسطين في جوهرها والتقاء مصالح الدول الاستعمارية ـ على ما بينها من تنافس على مناطق النفوذ ـ على تأييد الصهيونية كرأس جسر لها في قلب الوطن العربي

غير ان هذا الامر يجب أن يضع الامة العربية كلها أمام مسؤولية العمل العربي الموحد لتحرير فلسطين بحشد جميع طاقاتها البشرية والمادية في هذا السبيل على ان يكون تنظيم الشعب العربي الفلسطيني فـي مقدمة هذا الحشد والاعداد . ومن هنا كانت اعادة انشـاء الكيـان الشعبي الفلسطيني الذي ينتظم جميع فئات هذا الشعب ومنظماتـه ضرورة حتمية لمرحلة الاعداد ، وضمانة أكيدة لاحراز النصر في معركة التحرير . كما ان على الدول العربية أن تصفي جميع الاختلافات فيمـا بينها وتنهي المعارك الجانبية التي تستنزف قواها وتنصرف انصرافـا كليا الى تحرير فلسطين لان مصير الوجود العربي كله معلق بمصيـر القضيـة الفلسطينيـة .

على انه من الضرورة بمكان أن يدخل العرب في حسابهم عامل الزمن الذي يزيد الاعداء قوة ويمكن لهم في فلسطين المحتلة يوما بعد يوم وخاصة بعد اغتصابهم المياه العربية وايصالها الى النقبوانكبابهم على صنع القنبلة الذرية » .

ويؤمن سماحته بان العمل الشعبي المنظم هو وسيلـة لتحريـر فلسطين ، وفي رأيه ان جميع شعوب العالم قـد سارت علـى درب التنظيم الشعبي الشامل لانتزاع حريتهـا واستقلالهـا ، والشعـب الفلسطيني أحوج شعوب الارض الى هذا التنظيم لان قضية فلسطين فريدة في نوعها وهي تواجه قوى عالمية على جانب عظيم منالتنظيـم والتنسيـــق !

لقد وقف سماحته عمره وجهوده على صالح القضية الفلسطينية ومستقبل الشعب العربي الفلسطيني وقاد حملة المقاومة ضد تهويـد فلسطين في ظل الانتداب البريطاني وتزعم حركة المقاومة المسلحة عندما أعلن الانتداب انسحابه من فلسطين ليخلي الارض المقدسة ومن عليها فريسة للصهيونية الباغيـة .

لقد عاش هذا الشيخ المجاهد المأساة الفلسطينية يوما فيوما وشهد فصولها الدامية واكتوى باتونها المتلظي . خمسة عقود ونيف وسماحته يقوم على مقارعة الخصم الجبار العنيد ويتحمل اعباء الجهاد ومـرارة النكبة ويتطلع الى اليوم الذي يرى فيـه فلسطيـن قد تحررت مـن غاصبيهـا الاقويـاء !

ومهما جار العاملون في الحقل السياسي بحكمهم على سماحتـه فهو في نظر المؤرخ المنصف رجل أخلص النية لامته وحاول خدمتهـا وانصافها ودفع عوادي السياسة عنها لكن السياسة الاوروبية ومـن خلفها الصهيونية العالمية قهرته وتغلبت عليه ، وصورته للفلسطينـي الساذج سبب شقوته ومصابه ... لانه لم يجار السياسة الغربية في مطالبها واهدافها واهوائها !

والناس من يلقى خيرا قائلون له ما يشتهي... ولأم المخفق الهبل

وقبل ان افرغ من هذا الفصل كتبت الى الوطني المؤمن الكبيـر الدكتور محمد صبحي أبو غنيمة (نزيل دمشق) اساله رأيه في سماحة الحاج محمد أمين الحسيني ، وهو الذي شاركه بلوى التشريد فـي أوروبا طيلة سني الحرب العالمية الثانية ، فتلقيت من معاليه رسالـة جـاء فيها قوله :

« ان سماحة الحاج محمد أمين الحسيني هو الفارس العربـي الذي ما كل ولا مل في نضاله ضد الاستعمار والصهيونيـة ، ولقـد صاحبته السنين الطوال في الوطن والمهجر ووالله ما رأيت منه لم أره من زعيم عربي قبله ولا بعده ... فهو دؤوب على عمله ، مؤمن بفكرته ، وعقيدته لا تتزعزع بالنصر النهائي و (بان الارض يرثها عباديالصالحون!)

كنا ابان الحرب الثانية في أوروبا وكان عليه ان يواصـل سعيه لدى أصحاب الكلمة في البلاد هناك حول اعطاء بيان صريح عن حـق العرب وعن أثرهم في انجاح كفة الحلفاء للنصر ، وكان من جـراء هذا يجد الكثير من العقبات التي ذللها بحسن تفكيره وجميـل صبـره ،

كبرياء

(رسالة من شاعرة ...)

•

حسن عبدالله القرشي

•

الريـــاض

أنت تدري اننا لن نلتقي
في دروب الزنبق
لــن تراني
لن أحس الضوء في عينيك يفرورق
نحـوي
لن أرى رعشة كفيك الجميلة
في انطلاقات طفولة
لــن أناجي همس ثغـر
يمزج الطهـر بمكـر
لــن أرى ثم انطفاءات غـرام
فلمـــاذا تدعـي ؟
بعد هذا أنني حبك لا قبل وبعد ؟
انني دنيـاك !
دنيـاك كبيـرة
انني أبصرهـا شوقا واحلاما غريرة
وحسانا لــن مثلـي
لــن مثلـي
انمـا يرضيـن للصـب غروره
هم تماثيـل وأنت اليوم مثال شهير
وانا أنموذج الفنـان يوما
كنت في فتنـة روحي
غير انـي نضبت كاس بريقي
حيث لا فتنة تغريك باشواقي
الضريـرة !

يا عطائـي
أنت لا تعرف ما معنى العطاء

أنا قد اعطيتك الحب ولكن سوف تنسى
وانا من لي بنسيان هواي ؟
انني شاعرة فالحب ومض في دمائي
هو أنوار خطاي
هو عطر في مسائي
وندى فجري واشراق ضحائي
انما الحب لديـك
ضحكـة في مسمعيك
ومضـة عابرة في ناظريـك
ضمـة بين ذراعيك مثيـرة
شهقـة من بين أجفان كسيرة
ونثارات انتشاء
وخـداع يتنزى

أي جرح بي مدمـى ؟
أي جرح انت قد ارثـت كالجمـرة
ايغالا ووخزا !؟

سوف تنســى
لا تقل كلا ولكن سوف تنسى
انني في الغد امسك
وانا بعد غد هبات ذكرى
ثم يمضي الحـب
في ذهلة احلام جديدة .
ويعود الامس اطيافا بعيدة
وسمادير غـرام
باهـت اللمحة مخنوق النشيد
وانا امسي : غدي مستقبلي
حبك الليل الذي لا ينجلي
عن حياتـي
سوف يبقـى
دافئا في ذكرياتي
ساريا مسرى دمائي
كـل حيـــن
سوف القاك ولكن في خيالي
سوف القاك باحلام حزينة
انت تدري أننا نتراءى
ابدا عينـا لعيـن
أنا لم يبق بانفاسي صدى غير ابائي
ربمـا تعـرف يومـا
كبريـاء الشعراء !.

فمثل العرب أحسن تمثيل ، ولقد كنت اسمع وارى من اكبر الرؤوس الحاكمة اذ ذاك مقدار احترامهم وتهيبهم لهذا الرجل العظيم.

ان الحاج أمين شخصية عربية لم اعرف لها مثيلا بين الشخصيات العربية التي ناضلت لاجل الامة — وهم والحمد لله غير قلة — ولكن ميزة هذا الزعيم هي في انه من المؤمنين بقضية يرى ان في ايصالها الى ساحل السلامة ايصال العالم في الشرق كله الى السلامة . فهو بهذا اوسع افقا من غيره من زعماء العدو والمحايدين الذين لا يريدون ان ينظروا الى قضيتنا الا كقضية محلية !

كل هذا هو قطرة من بحر مما أعرفه ويعرفه الناس عنه » .

ورحم الله اخانا الشاعر وديع البستاني القائل مخلصا مؤمنا :

يا (أمين) العرب مهلا انما لعلى عهـدك انا يا (أمينـا)
لست فردا أنت لكن امـة أنت ان تشك شكونا أجمعينا !

عمان — الاردن

البدوي الملثم

العنبر

مهداة الى مجلة «الاديب» في يوبيلها الفضي

بقلم يوسف اسعد داغر

* * *

هزة شعورية تتمطى ثنايا الضلوع واغوار النفس لدى الادباء - كل الادباء العرب - في أي قطر ومصر كانوا ، احتفاء منهم بعيد مجلة «الاديب» مجلتهم الاثيرة ، بيوبيلها الفضي ، بعد ان قضت ، في جهاد مستمر ، مبرور ، دام ٢٥ سنة ، كانت فيها وستبقى انشاءالله ، معهدا عربيا لتدريب الكثيرين من ارباب القلم اليوم في العالم العربي، كما كانت سجلا حافلا باخبار الحركة الادبية وتياراتها الكبرى ومجاريها الفكرية ، وتفاعلاتها وانفعالاتها ، من المحيط الى الخليج . ومعرضا مغريا للانتاج الفكري العربي ومدرسة للنقد الادبي الحصيف ، واستعراضا للانباء والنشاطات الادبية خلال ربع قرن مضى .

ومن الطبيعي جدا ان نعيد «للاديب» في يوبيلها وان نعيد لها باحلى زينة ومظهر ، في هالة نورانية ، ينتظم سلكها الادباء ، كل الادباء العرب ، بعد ان كانت ، وستبقى ان شاء الله ، متنفسا لاقلامهم،ولنا نحن الادباء اللبنانيون خاصة،لتحمل للجميع،دونما انقطاع، مهما اشتدت بها وبنا الظروف ، ولتنتشر بين الملأ العلمي ودنيا المستشرقين ، لهث القلم وعصارة الفكر العربي .

في عيد «الاديب» هذا ، يتطلع الجميع ، بشيء من الاكبار والتقدير ، وبشيء من الفخر والعزة ، لحصيلة «الاديب» في هذه السنوات الخمس والعشرين ، ممثلة بمجموعة مجلداتها الخمسة والعشرين ، مثقلة بالعلم والثقافة ، تحكي عاليا وتحدث بحروف من نار ونور ، عن الجهد البار والجهود الصامتة ، والايمان الحار والصبر الجميل ، والادب الجم ، والبسمة الرضية ، والانفة الوادعة ، والاباء المشفق ، في تجرد الناسك وزهد الحبيس ، ٢٥ سنة تمر عطاء على عطاء ، جودا بالنفس والنفيس ، وبذلا للغاليين الوقت والمال . كل ذلك في غبطة المتصوف ، ورضى الضمير ، وراحة القلب المطمئن .

بين العنبر و «الاديب» اكثر من جناس وطباق . هنالك مماثلة تستبين خيوطها بوضوح لمن يعرف خصائص العنبر ومناقبية «الاديب». وهذا بالذات هو الذي اوحى لنا بكتابة هذا المقال عن العنبر لما له من رمزية تحاكي ملامح «الاديب» وصاحب «الاديب» المفدى . وهي رمزية وملامح لا يفوت القارىء الكريم الحصيف الابانة عنها ، اذا ما طالع مقالنا هذا بتدبر وروية ، بعد ان يجرده من الاستطرارات التي اقتضاها العرض العلمي . فالى العنبر ، يا قارئي الكريم .

* * *

أيجوز ان يدور الحديث حول العنبر والاتجار به عبر التاريخ ، دون ان تستوقفنا ، هنيهة ، الاسطورة اليونانية التي ردد صداها الشاعر الروماني المشهور أوفيد (٤٣ ق.م - ١٧ ب.م) في كتابه المشهور : «التحولات» . وقد عرفت هذه الاسطورة رواجا واسعا في جميع الاداب الاوروبية لم تفقد شيئا من حلاوتها بحيث لا يستطيع المرء الا ان يقف عندها متمليا مستمدا .

تدور الاسطورة المذكورة على حكاية فايتون Phaeton ابن هليوس اله الشمس ، وهي قصة طريفة يرى فيها الكثيرون تحذيرا لهؤلاء الاغرار من الفتيان الذين تسول لهم النفس الامارة بالسوء ان يتولوا يوما قيادة احد كواكب الافلاك السماوية في القبة الزرقاء دون ان يحصلوا على اجادة لقيادة الكواكب . فلا عجب ان تنتهي مغامرته بكارثة تفضي به الى الهلكة ، اذ ما كاد فايتون يقترب في سيره من كوكب الارض ، وهو ممسك بيد مسترخية ، يقود مركبة الشمس حتى اخذ يتعرض الكون كله لحريق هائل ياكل الاخضر واليابس . فما كان من جوبتير وقد هاله الاحتمال المروع الا ان سلط عليه صواعقه المحرقة ، فجندله والقى بجسمه في أريدان Eridan

اما هيلاديس ، شقيقات فايتون فقد استحلن شجرات حور تذرف دمعا سخيا على شقيقهن البائس . وما كانت هذه الدموع لترى الهواء حتى تقسو وتجمد وتستحيل حبات من العنبر تتقاذفها مياه الانهر والسواقي لتغوص في لجج البحر وتستقر فيه .

والحري بالملاحظة في هذه الاسطورة اللطيفة هو القول ، منذ البدء ، باصل العنبر النباتي ، اذ ليس العنبر سوى « عبرات الشجر الباكي » . وهو قول اثبتت صدقه وصحته الابحاث العلمية التي اجراها العلماء في القرنين التاسع عشر والنصف الاول من القرن العشرين امثال : لومونسوف (١٧١١ - ١٧٦٥) وباك وستروف وغيرهم كثيرون . وقد ذهب المذهب ذاته في رد اصل العنبر الى النبات ، ارسطو عندما راح يؤكد ان العنبر ليس سوى راتنج نباتي لاحتوائه مستحاثات متحجرة من نبات وحشرات ، من المستحيل عليها دخول جسم العنبر لو لم يكن له يوما وضع السوائل . ونجد مثل هذا الظن والرأي عند الرومانيين انفسهم ، وعلى الاخص في كتابات بليني القديم (٢٣ - ٧٩ م) .

فمن اين استمد ارسطو وافلاطون وغيرهما من علماء الرومان اهتمامهم بالعنبر . والجواب على هذا نجده في الاسم اليوناني للعنبر، وهو «الالكترون» هذا المصطلح الذي دخل بلفظه الواحد جميع اللغات الحية وتبلور عن لفظ كهرباء Electricité . فاذا ما فرك العنبر بقطعة قماش من الصوف اكتسب قوة جذب قوية تجتذب اليه الاجسام الخفيفة الوزن من اصل نباتي مما يقع على مقربة منه او في نطاق جاذبيته وهذه الخاصة هي التي قربت الالكترون من الظواهر الطبيعية ولفتت انظار الفضوليين من العلماء اليه فيما بعد . فقد نظر الاغريق وغيرهم من شعوب الشرق الادنى ، والمصريون الى «الكهرباء» نظرهم الى حجر سحري ، لما استقر فيه من خصائص الكهربائية الساكنة ، وبديع لونه ولطاقته ونعومة ملمسه . فليس من عجب قط ، والحالة هذه ، ان يحسن الانسان استعماله منذ القدم ، فيتخذ منه الطلاسم والتعاويذ الواقية التي تضمن لمن يحمله السعادة والخصب والمنعة ضد الامراض . كذلك استعمله الانسان مسحوقا يستطب به ، واتخذه الملوك وكبار قادة الحرب زينة لهم ، كما كان حلية النساء المفضلة . وكان العنبر خير ما ازدان به تاج الفرعون توت عنخ امون الذي نرى مومياءه اليوم في متحف القاهرة ، اذ رصع بقطعة من العنبر جيء بها من شطآن البحر البلطيقي ، وهي بلون الشمس الذهبي ، تحف بها احجار كريمة من الماس والزمرد والعقيق .

فهل نعجب ، بعد هذا من ان تغلو قيمة العنبر وترتفع اسعاره لدى التجار ، وان يعرف قيمته الفينيقيون ، فيسعون في جمعه وتصيده من مظانه ويغامرون في رحلات واسفار بعيدة لجمعه . فكانت هذه الحركة التجارية الواسعة من معالم التطور الجغرافي في التاريخ القديم.

هنالك انواع عدة من العنبر تتوزعها جميع القارات ، وهي اكثر تنوعا في البلدان الواقعة على شطآن البحر البلطيقي منها في أي صقع آخر . ففي هذه المنطقة بالذات يجب ان نبحث عن مصب نهر أريدان، الذي هوى اليه جسم فايتون ، لا في نهر البو ، الذي احلولى لبعضهم ان يجعلوا منه أريدان الاسطورة . ويمتاز العنبر المستخرج من البلدان

الواقعة على سواحل البحر البلطيقي بالوانه البديعة من الاصفر الفاقع، مما حمل الناس على تسميته : «بذهب الشمال» ، وهي تسمية لها ما يزكيها الى حد بعيد ، اذ كان العنبر يباع ثقله ذهبا .

فقبل العصر الجليدي ، في الدور الثلاثي الذي تتناوح حقبته بين الابوسيني العلوي والاوليغوسيني السفلي ، أي في هذه الفترة الزمنية الهلكية التي تتراوح بين ٤٥ – ٣٥ مليون سنة تقريبا ، كانت المنطقة التي تؤلف اليوم البلدان السكندنافية والبحر البلطيقي والقسم الشمالي من الاتحاد السوفياتي ، وبولونيا والمانيا تغشاها الاحراج الكثيفة التي تالف معظمها من غابات الاشجار الراتنجية ولا سيما من الشوح والصنوبر المعروفة بطاقتها الكبيرة على الافراز والنضح.

اكبر كمية من العنبر استخرجت من البحر بعد ان قذفت بها الامواج الى الشاطىء مع العواصف الهوجاء او استخرجت من التربة ، او وجدت في شبه جزيرة سمبيا .

وكلمة «عنبر» التي تطلق تسمية لهذه المادة في اللغات الاجنبية،هي كلمة او مصطلح عربي النجار – اصلا – اقتبسها الروم من العرب في الاندلس وتبنتها اللغات الرومانية او اللاتينية الاشتقاق كما تبنتها اللغات الانكلوسكسونية . اما الالمانية فقد عبرت عنها بكلمة Bernstein وهي كلمة منحوتة من Brennenstein وتعني الحجر الذي يحترق. والاحتراق او الاشتعال صفة تلازم العنبر لقابليته للالتهاب . وللهب البديع الذي يتصاعد منه عند الاحتراق ، والاريج الذي يفوح منه ويعبق به عند الاشتعال ، اخذوا يستعملونه في الطقوس الدينية ومناسك العبادة لدى الوثنيين والمسيحيين على السواء ، كما استعملوا معه البخور والمر.

عرف الفينيقيون باقبالهم على الاتجار بالعنبر والحرص على جمعه . فكانت سفنهم تمخر ، عمارات وفرادى ، عباب البحر المتوسط فتجتاز مضيق جبل طارق وتسير بمحاذاة سواحل اوروبا الغربية الى ان تبلغ شواطىء شبه جزيرة جوتلاند ، المركز الرئيسي لهذه التجارة وللتبادل التجاري في منطقة البحر البلطيقي . وقد سلك فريق من تجارهم طريقا آخر انطلق من مسيليا (مرسيليا اليوم) التي كانت قاعدة كبرى للتجارة في الحوض الغربي للبحر الابيض المتوسط ،ومنها كانوا يتجهون شمالا عبر نهري الرون والرين ، ومنهما برا الى شواطىء البحر البلطيقي .

يصف لنا المؤرخ والعالم الروماني بليني ، في المجلد الاخير من كتابه الموسوم : « التاريخ الطبيعي» ، رحلة من هذه الرحلات قام بها الرومان الى مناطق البحر البلطيقي ، عادوا منها بكميات وافرة من مادة العنبر الثمينة ، بينها قطعة واحدة بلغت زنتها ١٣ ليبرة . وقد استعمل العنبر الذي عادت به هذه البعثة التجارية في تزيين حلبة المصارعة حيث كانت تجري حفلات زاهية في عهد الامبراطور نيرون .

اما أهم الطرقات البرية التي اتبعها تجار الرومان والعرب بعدهم في طلب العنبر فقد كانت تخترق ارض بولونيا اليوم . وقد ظهر من خلال الحفريات والتنقيبات التي اجريت هناك للبحث عن النقود القديمة انواع كثيرة من هذه النقود من مصدر روماني او عربي ، كما وجدوا كنوزا من مخبوء العنبر في مخابىء حرص تجار الجملة او عملاؤهم على ايداعها ما لديهم من هذه المادة بانتظار وصول قوافل التجار والراغبين منهم فيها على الاخص .

كانت اوروبا الوسطى ، في تلك الحقبة خالية من الطرقات والمسالك الميسرة بعد ان غطت الغابات الظليلة والاوحال والمستنقعات والثلوج المتراكمة مساحات شاسعة من تلك المنطقة ، او جعلت الحيوانات الضارية التي تسرح في تلك الفيافي ، التنقل فيها صعبا جدا لما يحف به من المخاطر . ولذا اعتمدوا بالاكثر على الانهر الصالحة للملاحة ، وبالاخص ، على شبكة المواصلات النهرية القائمة بين الفستول والدنيستر والدنيبر التي كانت تؤلف فيما بينها ما يحاكي مروحة نهرية هائلة ربطت البحر البلطيقي بالبحر الاسود وشدت بين مناطقهما . وتشعب عن هذه الطرقات الرئيسية اربعة فروع ، انطلق اولها من خليج دانزيغ عبر الفستول والبوخ والبريبت والدنيبر والدون ، لتتصل فيما بعد بالشعاب الموصلة الى كوبان ودجلة فتفضي منها الى الخليج العربي . ومن هذه النقطة بالذات ، كان العنبر يصدر الى اسواق الشرق الادنى ، ولا سيما الى اسواق ايران .

اما الشعبة الثانية فكانت تسير وانهر الفستول والسان والدنيستر حتى البحر الاسود حيث كان تجار من مصر واليونان وايطاليا الجنوبية يترقبون وصول قوافل التجار ناقلة احمال العنبر فيتهافتون عليه .

اما الشعبة الثالثة ، فقد كانت تسير مع الفستول حتى نهر فارتا ثم تاخذ مسالك ومعابر انهر ثانوية اقل اهمية تصلها الى الاودير ، لتبلغ منه النقطة التي قامت فيها مدينة وروكلو التي كانت من اهم مراكز الاتجار بالعنبر في أوروبا الوسطى ، كما يستدل على ذلك من الاكتشافات والحفائر التي قامت في هذه البقعة ، فيما بعد . وكان العنبر ينقل برا من وروكلو عبر مقاطعة مورافيا ليبلغ منها ايطاليا الشمالية . وعلى جادة هذا الطريق وقعت المستعمرة الرومانيةالقديمة المعروفة باسم وندوبونا والتي كانت بندرا تجاريا هاما والتي اصبحت فيما بعد مدينة فيينا ، عاصمة جمهورية النمسا اليوم .

اما الشعبة الرابعة وهي أقصاها طرا الى الشمال ، فهي التي ربطت بين البحر البلطيقي وبيزنطية ، عبر نهري النيفا والدنيبر .ولم يكن العنبر المادة الوحيدة التي كانت تصدرها اوروبا الشمالية الشرقية ، اذ ذاك ، اذ كانت تورد ، الى جانب هذه المادة : المواشي والفراء والرياش الفاخرة . وكانت اهم عنابرها ومستودعاتها قائمة حول مدينتي : البندقية وتريستا ، كما كانت مركزا هاما لتصدير الرقيق الى جميع اطراف الشرق ، هذه القوة المحركة الاولى في التاريخ القديم .

وكان التجار الرومان والعرب يقايضون العنبر بمواد اخرى وسلع تجارية كمصنوعات الحديد والاسلحة المطعمة والمنسوجة المزركشة . واخذوا ابتداء من القرن السادس ق.م يحددون اسعار هذه السلع على اساس عملات من الذهب او الفضة او الحديد بعد مراعاة النسبة بينها . وفي هذا دليل قاطع على هذه المقادير المهمة من النقود التي نزحت من بلدان حوض البحر المتوسط ، مما عثر على بعضه المنقبون في هذه الحفريات التي قاموا بها في المعالم البارزة من هذه الطرقات التي سلكها التجار والاسواق التجارية التي أموها .

وكانت مدينة كالتز التي تقع الى الشمال الغربي من بولونيا تتيه وتدل بما لها من ماض سحيق يربو على الف سنة . فقد نشأت وتطورت لكونها سوقا تجارية ومركزا لمستعمرة قديمة خلال البعثات التجارية الرومانية فكانت من اهم المراكز التجارية لتسويق العنبر ، كما كانت وروكلو نفسها .

والرواج الذي عرفته تجارة العنبر انتهى بانتهاء الامبراطورية الرومانية وسقوطها . ولعل آخر ذكر لهذه التجارة يعود للفترة التي عقبت راسا سقوط الامبراطورية ، كما نقرأ خبر ذلك في احدى الرسائل التي بعث بها قسيودوروس (٤٨٠ – ٥٧٥) ، مستشار تيودوريك ووزيره ، الى زعيم احدى القبائل البلطقية يشكره لارساله له كمية من عنبر شبه جزيرة سمبيا ، جاء فيها بالحرف الواحد : « نحييكم اطيب تحية ونحيطكم علما باننا تسلمنا بكل ارتياح هديتكم السنية التي تضمنت انواعا بديعة من العنبر . فالبحر يمدكم بحجارة تتلألأ سناء تجهلون منشأها كما يشهد على ذلك موفدكم ، مع انكم اول من يستقبل هبة البحر لكم ».

اما في الاجيال الوسطى ، فالعنبر كان يستعمل ، كما هو في عصرنا هذا حلية وزينة ، اذ اننا نجد في الكثير من متاحف اوروبا نماذج عديدة من العنبر المشغول تبدو لنا تحفا غالية ، اذ يجب الا

أجمل ذكرى

ترى ودادك يصفو ... ويعقب العنف عطف
ونلتقي بعد هجر ... والامنيات تزف
مهما استمر التجافي ... يحن للالف الف
ويشتهي القلب قلب ... ويعشق الطرف طرف
اليك يهفو فؤادي ... فهل فؤادك يهفو ؟
أنت الحبيب المفدى ... فلا تصد وتجف
اذا أسأت فعفوا ... فذو المروءة يعفو

أراك ملء كياني ... بك البهاء يحف
جمالك الفذ يا حلو ... لا يوفيه وصف
فكل وجهك حسن ... وكل طبعك ظرف
قلبي وآمال نفسي ... على ولائك وقف
ملكتني يا ملاكي ... ويملك الصب لطف
يا زهرة الحسن فوحي ... يلذ لي منك عرف
ذكراك أجمل ذكرى ... على ضميري ترف

حلب ... عبدالله يوركي حلاق

يغرب عن البال قط ان العنبر ، يتقبل ، الى حد بعيد الحفر والنقش وهي خصائص عرفها له الفنانون استغلوها الى أقصى حد . ومع ذلك استمر الناس في هذه الحقبة على ما تراسب في اذهانهم من مسلمات ان للعنبر خصائص سحرية وطبية . وعندما ارسل الامير البرخت بتحياته لمارتن لوثر ، وبتمنياته القلبية بشفائه العاجل مما ألم بم من اسقام واوصاب وآلام شكا منها وتظلم ، شفع تمنياته هذه بحبة جميلة من العنبر .

وقد بقي العرب ، كغيرهم من سكان اوروبا الذين عرفوا وجوه استعمال العنبر يستخدمونه حلمات للغلايين وابزازا للفائف المدخنين. ولعل في هذه العادة ما يشير ولو من طرف خفي ، الى التقاليد التي أضفت على العنبر ، خصائص ، ننعتها اليوم بلغة العلم ، مبيدة للميكروبات ومعقمة من الجراثيم .

واستعمل العنبر الوارد من بقاع البلطيق في وجوه اخرى . فقد دخل على نطاق واسع في تحلية وزركشة الاثاث والمفروشات التي كانت في قصر الامبراطورة كاترين الثانية قيصرة روسيا ، الذي قام على مقربة من بطرسبرج (في المحلة المعروفة اليوم باسم بوشكينو ، على مقربة من لينتغراد). فقد كان احد ابهاء القصر المذكور مزركشا بالعنبر ، كما دخل العنبر في تكفيت الاثاث والمفروشات . وقد ذهب القصر بما فيه من اعلاق التحف والحجارة الكريمة طعما للنار في هذه الحرائق التي التهمته ابان الحرب العالمية الثانية .

وقد عرف العنبر في النصف الثاني من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر استعمالا جديدا ، اذ أصبح المصدر الاول لتنمية معلوماتنا حول طبيعة وماهية النباتات والحشرات التي عاشت في هذه المنطقة بالذات ، في هذه الحقب الجيولوجية التي تعاقبت عليها . فقد احاط راتنج العنبر ليس بالكثير من صنوف النباتات فحسب ، بل ايضا حف بعدد كبير وانواع شتى من فصيلة غشائية الجناح وغيرها من الحشرات وانواع الحرادين . فقد اعتمد العلم الحديث على هذه المستحاثات المتحجرة للكشف عن ١٩٠ نوعا من النباتات البائدة لا يوجد منها شيء اليوم ، كما كشف عن ١٢٠٠ نوع من الحشرات الغشائية الاجنحة وغيرها . وساعدت هذه النتائج العلمية الباهرة ، والفوائد العلمية التي ادت اليها هذه الكشوف على القيام بتحريات وتنقيبات في مجالات اخرى . وعلى هذا الاساس ، يمكن التاكيد بأن طبيعة المناخ والاقليم التي سيطرت على تلك المنطقة في هذه الحقبة الهلكية بالذات قد تغيرت تغيرا جذريا ، وهذا التحول يرجح النظرية العلمية التي تقول اليوم بتغيرمركز القطب الشمالي ، وبهذه التغييرات التي طرأت على المناطق والدوائر المناخية التي عرفتها كرتنا الارضية . فعلماء الطيور وجدوا في بعض قطع العنبر ريش العصافير ، وهو اكتشاف يتخذون منه دليلا على اشياء علمية كثيرة .

وهكذا نرى ان العنبر استأثر باهتمام الجميع ، وان الطرق التي اتبعها التجار للحصول عليه كانت صوى في التطور التاريخي الذي مرت به الحضارة البشرية . فقد بهر العنبر العلماء والنساء والتجار والشعراء ، والطرق التي ادت الى مساقطه اصبحت اليوم من هذه الشرايين التي غذت البشرية جمعاء .

ارجو ، قارئي الكريم ، ان تكون تبينت هذه الوشائج التي تربط بين «الاديب» وبين العنبر التي اوحت لنا بهذا المقال . فالى اليوبيل الذهبي ، اديبنا الكبير ، وعين الله تكلؤك وترعاك .

يوسف اسعد داغر

طبقة الفهماء

بقلم حسن الكرمي
من « العروة الوثقى » في لندن

* * *

ذكرت في مقال سابق شيئا عن اشتقاق كلمة Rationalism وقلت ان الاصل لاتيني . وقد جلب انتباهي الى اشتقاق هذه الكلمة بصورة خاصة ما كتبه الفيلسوف Guthrie عن ترجمة بعض الكلمات الاغريقية القديمة الى اللغة الانكليزية ، حيث اوضح تطور المعاني لهذه الكلمات وكيف تغير الحال بها مع الزمان حتى اصبحت الواحدة منها ذات معنى تجريدي خيالي معقد بعد أن كان هذا المعنى في الاصل بسيطا لا يخرج عن حيز الخبرة الملموسة . واورد هذا الفيلسوف تدليلا على ذلك ثلاثة امثلة ، هي « العدالة » و «الفضيلة» و «الله» . ولنأخذ هنا كلمة « العدالة » كما ترجمت عن الاصل اليوناني . فان الكلمة اليونانية في الاصل كانت تعني العادة أو الداب او الطريقة ثم تطور المعنى الى السلوك في طريق لائق ، ثم صار الى معنى السلوك في طريق مستقيم ، وانتقل المعنى الى السلوك الحق ثم الى السلوك الرشيد ، وهذا معناه «العدل» أو «العدالة» . وكلمة «الفضيلة» لها تاريخ من هذا النوع ، كما لكلمة «الله» ،ولا حاجة بنا الى التفريع عليهما ، لان المثال الذي ذكرناه يكفي لاظهار التطور المعنوي في الكلمات . وهذا بحث يكاد ان يكون معدوما في اللغة العربية ، لان المعاني في الكلمات العربية لا ينظر اليها بأنها تطور وتغير مع الاستعمال ، بل ينظر اليها انها ثابتة لا تتغير ولا تتبدل ، ولا تخضع لمجرى التاريخ . وقد أضاع العرب بتأثير هذه الفكرة كنزا كبيرا من تاريخ الكلمات ومعانيها اصبح الان نسيا منسيا أو كاد . وكنت قبل الشروع في كتابة هذا المقال أفكر في عبارة «النفس الناطقة» التي تستعمل في كتب الفلسفة العربية والاسلامية بمعنى «النفس العاقلة» ، وفي علاقة «النطق» بالعقل . نعم ان الانسان كثيرا ما يعرف بانه « الحيوان الناطق» ، وكثيرا ما تفسر كلمة «الناطق» بمعنى الذي يقدر على افهام مراده بالكلام ، خلافا للحيوان الاعجم الذي ليس له الفاظ أو كلمات او لغة يعرب بها عما في نفسه فيفهم من غيره ويفهم غيره منه . وقد راجعت القواميس العربية علني أتوصل الى معرفة العلاقة ، ان كانت علاقة في رأيهم ، بين النطق والعقل . فأكثرها يقول : الناطقة هي القوة الموجودة في جنان الانسان التي تنتعش فيها المعاني . وهذا كما لا يخفى كلام محشو بكلمات مبهمة ، وقد يفهم من ذلك ان الناطقة هي المدركة. ثم من اين جاء لنا كلمة «المنطق» بمعنى المحاكمة العقلية بأصول معروفة ؟ فاذا كانت علاقة بين النطق والعقل فكيف كانت هذه العلاقة وكيف تولدت ؟ هذه وغيرها من جملة المسائل التي فكرت فيها قبل الشروع في كتابة هذا المقال . والطريف في الامر ان العلاقة بين النطق والعقل علاقة موجودة في اللغة اليونانية القديمة بحسب تطورها . وقد يجوز أن يكون التطور في اللغتين قد سار على نفس الطريقة او ان العرب اخذوا عن اليونان «النطق» بمعنى العقل فقالوا : «النفس الناطقة» اي النفس العاقلة. ولعل العرب ايضا استعملوا كلمة «نظر» بمعنى «الفكر» عن طريق التطور ، ولا عبرة في وجود هذا التطور المعنوي نفسه عند اليونان القدماء . فكلمة «نظر» بهذا المعنى موجودة في القرآن الكريم ، فلا بد أن تكون كلمة اصلية ، وهذا لا يستغرب لان كثيرا من الاقوام تعتبر النظر بابا للفهم فوق غيره . والمعاني لكلمة «نظر» المذكورة في القاموس العربي هي الابصار والتأمل والتدبر والتفكر والتكهن . ولكن لا أدري اذا كانت كلمة «نظرية» هي كلمة عربية أصيلة الاستعمال أم انها ابتدعت ترجمة للكلمة اليونانية (ثيوريا) لان هذه الكلمة اليونانية معناها في الاصل «النظر» . وفي هذه المناسبة ايضا اقول ان كلمة «قرأ» في اللغة العربية كانت تعني في الاصل «جمع» . وهو المعنى نفسه الذي كان لكلمة قرا Lego اليونانية . ولتعليل هذا التقارب الظاهر في معاني بعض الكلمات بين اللغة اليونانية واللغة العربية ننظر في كلمتين يونانيتين اثنتين : احداهما nous والثانية Logos والفعل من الكلمة الاولى معناه في الاصل «راي» أو «نظر» بأبسط المعاني المحسوسة ، ولكنه تطور وصار يعني «أدرك» ثم «عقل» بالفكر . وهذا معناه ان «النظر» هو في الاصل أساس معنى «العقل» . أما الفعل من الكلمة الثانية فمعناه في الاصل «الجمع» ثم «الانتخاب» ثم «الحساب» و «العد» وكذلك «اعطاء الحساب أو البيان» وبعده «القول» و «التسمية» وهذه تعني «الدلالة» و «التفسير» ثم «الحكم» وهو اساس «العقل» . وكلمة Logos تعني في الاصل «الحساب» ثم «الخزانة المالية» ثم «النسبة» بين الاعداد ratio . ومن هنا جاء معنى «المحاكمة العقلية» . ثم ان هذه الكلمة تعني ايضا «النطق» بمعنى «الحكاية» أو «القصة» ثم صارت تعني «القول» ثم «موضوع القول» أو «البحث» اي «البحث عن حقيقة الاشياء وقوامه «العقل» . ويظهر من هذا كله ان «النظر» هو أساس الادراك عند اليونانيين ، وكذلك «النطق» هو بمعنى «العقل» عندهم . وكلمة «ثيوريا» اليونانية بمعنى «النظرية» أصلها من فكرة «النظر» التي هي بمعنى التفكير والادراك . ولا بد أن يكون العرب قد نقلوا عن ارسطو استعمال «النطق» Logos بمعنى العقل أو الفكر ، فهو

الذي استعمل عبارة «الحيوان الناطق» بمعنى « الحيوان العاقل » على أساس المعنى الاصلي لكلمة Logos . ومن هنا يتضح لدينا العلاقة بين «النطق» و«العقل» ، وهي علاقة لا تمكن معرفتها من مراجعة القواميس العربية . ومن هنا أيضا كانت كلمة «المنطق» في مقابل Logic ثم كلمة « راي» ومعناها «فكرة» .

ونعود بعد هذا الاستطراد الى الموضوع الاصلي وهو «مذهب تحكيم العقل» في المدنية الغربية وكيف كان منشأه . فان المعرفة ، كما كان المعتقد في القرون الوسطى، لها مصدران : الاول الكتب السماوية والثاني العقل الانساني . والمصدر الاول أسمى من المصدر الثاني لسببين : الاول ان المعلومات التي في الكتب السماوية اصح واصدق من غيرها لانها صادرة عن مصدر رباني هو اعلم بالحقائق . والثاني : ان الانسان ناقص بحكم الخطيئة الاصلية ، ونقصه هذا يتعدى الى عقله ، فلا يمكن العقل الناقص ان يتوصل الى ما يتوصل اليه العقل الرباني الكامل ، بل ان العقل البشري لوجود هذا العيب فيه لا يدرك الا المظاهر المضللة الكاذبة . فتحكيم العقل ، اذا اريد له النجاح ، يجب أن يدخل الشك في النفوس حول قيمة المصدر الاول للمعرفة من جهة ، وان ينقض ما يقال عن نقص العقل البشري من جهة أخرى . وقد جرى ذلك على مرحلتين : الاولى : حركة التحرر الفكري ، والثانية حركة تحكيم العقل ، وكانت المرحلة الاولى في الغالب في القرن السابع عشر. وكانت المرحلة الثانية في الغالب في القرن الثامن عشر . والحركتان في الأصل كانتا في معرض الصراع بين الايمان والعقل . وقد عرضت لنا مناسبات في المقالات السابقة تكلمنا فيها عن هذا الصراع واشرنا الى أقوال عدد من رجال الدين والفكر ، وذكرنا أن مبدأ هذا الصراع كان على شكل التشكك وعدم الوثوق في أول الامر ، ومن ذلك مثلا ما ذكرناه عن الكاتب الفرنسي «مونتين» . فهو زعيم حركة الشك في الفكر الغربي منذ القرن السادس عشر . ومصدر هذا الشك تعدد الاديان والفرق الدينية واختلاف العادات والاخلاق عند الاقوام المختلفة التي كشفت عنها الاكتشافات والحقائق العلمية الجديدة . وكان مونتين يرى أن حركة الاصلاح الديني في القرن السادس عشر أوجدت من المشاكل الجديدة اكثر من المشاكل القديمة . وفي رايه ان الدين هو كاللباس مفروض علينا بحكم العادة . وجميع الاديان تستعمل حججا واحدة متشابهة للدفاع عن الافكار فيها . وقال ان الوصول الى معرفة الله امر فوق طاقة العقل البشري ، وان المعجزات مشكوك فيها ، وان النبوات قد انقطعت . وقال ان الآراء من قديم الزمان تتبدل وتتغير ولا تثبت على حال . فقد وضع الفلاسفة وغيرهم النفس في الدم وفي القلب وفي المعدة وفي الجفون وفي الدماغ وفي اماكن أخرى من الجسم . ولا تزال النفس مجهولة المكان . وقال ان الحقيقة جارة ملاصقة للكذب ، وان الحواس خادعة وان العقل مبطل ، والعلم غير محقق كالفلسفة، والذي اوجده «كوبر نيكس» في علم الفلك ونقض به ما سبقه من نظريات فلكية سيلاقي نظريات فلكية جديدة تنقضه . ونظرياتنا حماقات واوهام واحلام ، والعقل عبارة عن لعبة وملهاة. وقال ان الناس قد خبروا كل شيء وسبروا كل شيء ، ولكنهم لم يجدوا في مجموعة العلم شيئا يكون اكيدا ثابتا الا ما كان اختلافا وتباينا في جميعه ، الى غير ذلك من مثل هذه الاقوال . فهذا الكاتب الفرنسي احدث بهذه الآراء تأثيرا كبيرا في نفوس قرائه ، حتى انه يقال ان الشك الذي بثه «مونتين» قد أصبح عاملا قويا في تحرير الافكار من سلطة الايمان في العالم الغربي . ويجب في هذه المناسبة ان لا ننسى الفيلسوف الفرنسي «باسكال» الذي عاش في القرن السابع عشر (١٦٢٣ — ١٦٦٢) ، بعد قرن تقريبا من «مونتين» الذي عاش في القرن السادس عشر (١٥٣٣ — ١٥٩٢) . ولنستمع لهذه القطعة من كلام باسكال : « ليتأمل الانسان اذن في الطبيعة بأجمعها في جلالها السامي الوافي ، وليطمح بنظره الى ما فوق الاشياء الدنيا المحيطة به . وليتأمل هذه الشمس المشرقة المثبتة كالمصباح الابدي الذي ينير هذا العالم ، الى أن تتراءى له الاوض كنقطة بالقياس الى الدورة الهائلة التي يرسمها ذلك النجم ، ثم فليعجب من أن هذا الفلك العظيم المترامي الاطراف ليس الا نقطة ضئيلة جدا بالقياس الى دورة النجوم في الرقيع المحيط بنا . واذا وقف نظرنا عند تلك النقطة فليجتز خيالنا الى ما وراء ذلك ، فان هذا الخيال سيعيا من كثرة التفكير قبل أن تعيا الطبيعة من كثرة الاعطاء . فان هذا العالم المنظور ليس الا خطا خفي المعالم على سطح الطبيعة . والطبيعة كرة غير محدودة مركزها في كل مكان ومحيطها ليس في اي مكان . ولكي تمثل أمام الانسان عجيبة أخرى تستدعي مثل هذه الدهشة ، عليه أن يدقق النظر في أصغر الاشياء التي يعرفها . فالحشرة او الدودة الصغيرة تعطيه في جسمها الضئيل أجزاء لا يقاس غيرها بها من حيث الصغر ، ففيها اطراف ذات مفاصل وعروق للدم في هذه المفاصل ودم يجري في هذه العروق وأخلاط في هذا الدم وقطرات في هذه الاخلاط وانجزة في هذه القطرات ، وليستفرغ في آخر الامر ، وهو يجزىء هذه الاشياء الاخيرة ، قوى الخيال لديه ، وليكن آخر شيء يصل اليه هو موضوع حديثنا هذا . فلعله يظن ان هذا هو اقصى ما يتناهى اليه الصغر في الطبيعة . واريده أن يرى فيه هوة جديدة . اريد ان أصور له العالم المنظور ليس وحده ، بل اصور الجسامة التي يستطيع الانسان ان يدركها في الطبيعة ، وجميعها منحصرة في ذرة متلخصة فيها . وليتصور الانسان هناك عددا لا يتناهى من الاكوان، حيث لكل كون سماؤه وكواكبه السيارة وارضه على نسبة كالنسبة الموجودة في العالم المنظور . وليذهل الانسان في هذه العجائب المدهشة في صغرها بقدر ادهاش الاخرى بعظمها . وهكذا فانه يجد نفسه معلقا في الطبيعة بين هوتين : هوة اللامتناهي وهوة

اللاشيء .» ومن اوضح ما وصف به باسكال حالة الانسان في هذا العالم قوله : « تصور عددا من الناس المقيدين بالسلاسل ، والمحكوم عليهم بالموت . وفي كل يوم يقتل بعضهم على مرأى من الآخرين ، والذين يبقون على قيد الحياة يرون حالتهم الخاصة بهم في مصير رفاقهم ، وينظر الواحد منهم الى الآخر نظرة الحزن واليأس ، منتظرا دوره . هذا مثال لما عليه البشرية من وضع حقيقي » . ولم يطمع باسكال قط في الوصول الى الحقيقة ، لان الضبط والحقيقة في رايه نقطتان دقيقتان جدا ، وهما ادق من ان تدركهما ادواتنا الغليظة الحد . وقد فزع باسكال الى العقل ليستعين به على دعم الايمان، فلم يجد العقل مسعفا له .

ويظهر مما اسلفنا ان حرية الفكر بدأت اولا على شكل موجة من الشك ، على غرار ما بدأت في كتابات مونتين . واساس هذا الشك تنبه الافكار الى الخلافات في الراي بين الطوائف الدينية في اوروبا والاتصال بشعوب اخرى لها اديان وعادات وتقاليد تختلف عنها في الشعوب الاوروبية ، وازدياد الاقبال على العلوم الطبيعية والاهتمام بها . وعلى العموم فأن انتشار تحكيم العقل ونشوء حرية الفكر في القضايا الدينية وغيرها أمر مرجعه الى عوامل مختلفة ، نذكرها الان واحدا واحدا . واول هذه العوامل هو الصراع بين الطوائف أو الفرق الدينية . وقد أشار الى ذلك الفيلسوف الانكليزي «بيكن» بقوله ان اول اسباب الالحاد هو الفرقة في الدين . وقال اذا كان الانقسام بين طائفة كبرى واخرى صغرى ازدادت الطائفتان حماسة وتعصبا ، ولكن الانقسامات العديدة تدخل الالحاد . والسبب الثاني لظهور الشك ناشيء عن الوقع الذي احدثه في الفكر الاوروبي الاطلاع على شعوب اخرى لها عادات واديان اخرى وذلك عن طريق الاكتشافات والاسفار ، وعن طريق الحكايات والاوصاف التي كان ينشرها الرحالون بعد عودتهم من امريكا او من الصين مثلا . وكان من نتيجة ذلك ما قاله « سبينوزا» مخاطبا رجال الدين في ذلك الوقت . فقد وجه اليهم كلامه يسألهم هل هم يعتقدون انهم قد وجدوا احسن دين يعلمه احسن الناس ؟ وكيف تسنى لهم ان يعرفوا ان هؤلاء المعلمين هم خير ممن علم الاديان الاخرى ويعلمها وسيعلمها ؟ وهل تفحصوا جميع الاديان القديمة منها والحديثة في بلادنا وفي الهند وفي سائر العالم ؟

والسبب الثالث هو نشوء الروح العلمية ، ونشوء الصراع بين العلم من جهة والايمان الديني من جهة اخرى . وقد أدرك هذا الصراع وما له من اهمية بالغة رجال الاصلاح الديني بصورة خاصة . ولما كان الفيلسوف الانكليزي «بيكن» السالف الذكر من اكبر دعاة العكوف على العلم ومعرفة الحقائق بالاختبار والمراقبة والتجربة فانه بحكم الضرورة عدو للاتجاه المعاكس المتمسك بالنصوص التقليدية بدون تفحص ولا انتقاء . ولذلك كان «بيكن» يقول ان منبع الالحاد في الغالب يكون بين الطبقات المتعلمة . واتخذ العلم حينئذ طريقين : طريق الفحص او البحث العلمي في طبيعة الاشياء على الارض وطريق البحث الفلكي في موضع الارض بالنسبة الى الكواكب او الشموس في الفضاء . وكان هذا الطريق الثاني هو الذي عجل في حدوث الصراع بين رجال الفلك وبين رجال القديم ، على ايدي اربعة من مشاهير الفلكيين وهم كوبرنيك (١٤٧٣ — ١٥٤٣) وجردانو برونو (١٥٤٥ — ١٦٠٠) وتايهو براه (١٥٤٦ — ١٦٠١) وكاليليو (١٥٦٤ — ١٦٤٢) وكبلر (١٥٧١ — ١٦٣٠) . ومن اهم النتائج لنظرية كوبرنيك ان الارض ليست مركز الفلك او النقطة التي تدور حولها الكواكب والافلاك كما كان الاعتقاد في القرون الوسطى على اساس نظرية بطليموس وغيره من اليونانيين القدماء ، بل هي كوكب من هذه الكواكب التي تدور حول الشمس . وهذا بطبيعة الحال يقلل من اهمية الارض بالنسبة الى العالم ، ويقلل بالتالي من اهمية الانسان المخلوق على الارض . وكان رد الفعل من رجال القديم محاربة هذه الآراء الفلكية الجديدة عن طريق نشر الكتب لتنفيذها او عن طريق محاكم التفتيش لمعاقبة القائلين بها ، كما جرى لجردانو برونو حينما احرق ومات ، وكما جرى لكاليليو حينما قبض عليه وسجن حتى رجع عن آرائه . وهذا رد الفعل الاول . ولكن رد الفعل الثاني كان عن طريق التوفيق بين العلم والدين ، وأدى ذلك الى نشوء ما يسمى بالدين الطبيعي او ما يسمى احيانا بالدين العقلي دون الاعتماد على الكتب السماوية . والفكرة في ذلك كله هي ان العالم الطبيعي خاضع لقوانين طبيعية يمكن اكتشافها بالطريقة العلمية ، وكذلك نشوء الاديان ونشوء الاخلاق ونشوء القوانين الاجتماعية يجب ان تكون خاضعة لقوانين محددة يمكن معرفتها بالبحث والاستقصاء وليس بالرجوع الى الكتب المأثورة . فرجال الدين العقلي يؤمنون بالله ، ولكنهم لا يؤمنون بأنه اله هذا الدين او ذاك ، وانما هو مستقل عن كل دين . ثم ان هؤلاء الرجال اتخذوا سبيلهم في البحث ، للتدليل على وجود الله وعظمته ، عن طريق دراسة الطبيعة ومعرفة اسرارها والوقوف على دقة صنع الخالق ، حتى يرى الانسان بنفسه أن وجود هذا العالم بهذا الانضباط والتنظيم دليل على وجود الخالق وعلى قدرته وجبروته، ولا حاجة بالانسان الى كتب سماوية لكي يصل الى هذه النتيجة .

وبحث هذا الموضوع يستغرق وقتا طويلا اذا اراد الباحث أن يفصل فيه بعض التفصيل ولكن الذين كتبوا عنه ، وخصوصا عن الصراع بين العلم عامة ، ومنه علم الفلك ، والتقاليد القديمة ، اوفوه حقه . ونذكر بالمناسبة كتابا للكاتب الامريكي دريبر Draper والكاتب الامريكي الآخر وايت White . ويمكن المهتم بهذا الموضوع أن يرجع الى هذين الكتابين او احدهما .

لندن

حسن الكرمي

الضوء الاحمر الخافت ، يعلو اطار الباب . عاد فنظر اليه : هل يطرق الباب ؟ ام يعود بعد قليل ؟. انه يعلم ان ما يدور في الداخل ، لا اهمية له . انه متأكد من ذلك ،ولكن لا احد يستطيع الاقدام . في لحظة ما ، يمكن للمرء ان يقتحم الباب ، والمطلوب في هذه الحالة ، هو مجرد الاحساس بعدم قيمة اي شيء ، لان النتيجة ربما كانت وخيمة . تململ في وقفته برهة ، وتصور منظرا لا يمكن وصفه ، وفي دفعة استهتار هم بالضغط على اكرة الباب ، ولكن انقذته عبارة اطلقها الساعي في نهاية الممر :

— سيادة المدير مشغول .

في داخله شعر براحة حقيقية .

ليس ندا للوقوف امام المدير ، او اقل من المدير . ربما يكون المنظر مخجلا، او ان مفاوضة بشأن العمل ستنتهي بالتسليم . توقف ، وتجمدت حركته، وكان الساعي قد وصل حاملا صينية عليها كوبتان من عصير الليمون ، فابتسم اليه في بلاهة ، وضغطت اصابعه على الملف الذي كان يحمله في يده اليسرى . واتخذ طريقه عائدا الى مكتبه . وامام الباب ، خيل اليه انه يرى المشهد لاول مرة : مجموعة من الرؤوس ، اغلبها اصلع، قد انكفات في ذلة وخوف على اوراق وملفات ، لا اول لها ولا آخر . ودخل صامتا ، ليتخذ نفس الوضع .

لا يدري متى بدات تنبت في راسه هذه الفكرة . متى ستنتهي هذه المهزلة ؟ حقا المهازل كثيرة ، ولكنه — في الواقع — لا يحسها قدر احساسه بما يدور في هذا المكتب . لا يستطيع ان يتصور مدى الازمات التي تمر على كل هؤلاء ، ولكن طحنها يبدو واضحا من وجوههم ، كل الوجوه ، بلا استثناء واذا كان في التصور امكان الثورة او التمرد ، فالنتيجة غير مضمونة ، ربما انقلبت الاية . ومال على زميله يطلب سيجارة ، ولكن الزميل ، الوقور ، لم يسمع شيئا ، او هو في الحقيقة لا يريد ان يسمع ، الا انه لم ييأس ، فقام من جلسته ، ووقف قبالته. رفع الزميل راسه ، وتأمله بنظرات ذات معنى ، ثم قال له :

— نعم يا سيدي ؟

ابتسم ، وخيل اليه انه استطاع ان يخترق ذلك الحصن ، ولكنه عاد وندم ، غير ان الوقت كان قد فات. قال بصوت خافت ، حتى لا يسمعه احد من باقي زملائه :

— سيجارة من فضلك .

كان « راغب افندى» يصرف مسبقا ما يريده « رشوان » ، ولكنه في نفس الوقت كان واثقا من نفسه



بقلم مصطفى ابو النصر

او على الاقل ، من انه لن يسمح لاحد ان يستغله .

— الم تقلع عن التدخين ؟

— اشعر بصداع .

حذره «راغب افندي» وهو يفتح الدرج ، ليعطيه من العلبة سيجارة :

— اخشى ان تعود اليه ثانية .

— لا تخشى شيئا ، انا قوي الارادة

جلس خلف مكتبه ، وراح يجذب الانفاس في استمتاع ، وشعر بمدى جمال التدخين . حقا انه لا معنى له ، ولكنها عادة ، عادة تستحكم في الانسان ، ولا سبيل



الى الاقلاع عنها الا بارادة قوية ، او ازمة متحكمة . ولولا ان مرتبه لا يكاد يكفي شيئا ، لما اقلع عنه ، انه الشيء الوحيد الذي يحس في مزاولته بالمتعة ، ومع ذلك فقد اضطر — تحت ضغط الظروف — الى التنازل عن هذا الحق البسيط .اما بالنسبة لتلك الرؤوس المنكسة ،فقد تخلصت من كل ما فيها ، ولم تعد سوى جماجم فارغة ، تكاد تشبه البطيخ الاقرع . على انهم سعداء حقيقيون ، ولكن ايعني هذا ان جذور الخوف قد استؤصلت نهائيا من قلوبهم ، ام انها قد ماتت ايضا ؟. في الحقيقة الموقف كما هو عليه منذ جاء الى هذا المكتب ، والجميع متفاهمون بشكل واقعي ، وليس من بينهم من تردد ولو ثانية واحدة ، ولا خوف من اي شيء . اذا كنت تريد ان تنجز اعمالك بسرعة ، فلا بد ان تدفع ، انا ايضا لازم اعيش ، الا ترى انني لا اتقاضى مرتبا ، ان ما تمنحه لي الحكومة اول الشهر ، انما هو مجرد رمز ، اما المرتب فانت وشطارتك . المسالة لا تعدو ان تكون عادة ، كالسجاير ، في البدء يحس المدخن بدوار خفيف ، ولكنه لذيذ وممتع ، ثم لا يلبث وتصبح ضرورة لا سبيل الى الاستغناء عنها . ترى هل انتهت الصفقة ، ام ان ذيولها ما زالت عالقة ؟.

وتنبه الى الملف الموضوع امامه ، ففتحه ومر بعينيه سريعا على الارقام المدونة في الجداول ، ثم طواه وحمله واتجه الى الباب ، وقبل ان يغادر الحجرة التفت قائلا غير موجه الكلام الى احد بعينه :

— انا عند المدير .

وكان الجميع منهمكين في اعمالهم، فلم يرد عليه احد بكلمة واحدة .

في الممر المؤدي الى مكتب المدير ، هواء رطب منعش ، واضواء خافتة جانبية ، توحي للسائر انه في طريق من طرق الجنة . توقف لحظة ، ثم بدات الفكرة تكبر وتكبر ، وهو يحس

بها تنمو في داخله ، وتتمثل امام عينيه صورا بهيجة ، ولكنها في نفس الوقت مجهولة . هل سيستطيع ان يخترق ذلك الجدار ، ام أنه سيظل جامدا صلبا لا سبيل الى النفاذ منه؟! المفروض ان الامكانيات كلها متوفرة بل اكثر من ذلك ، انها مباحة للجميع ، مشاع للقوي ، خاوي الراس ، ميت القلب . واذا كان ذلك ممكنا ، هل يعني هذا ان المدير يمكن ان يكون اداة فعالة ؟ ام ان المسألة : انت وشطارتك ، ولا شأن لنا ؟. يقال ان العرف له — في بعض الاحيان — قوة القانون ، لماذا اذن لا يعترف به علانية ، ويصبح جزءا من القانون غير مدون ، كدستور انجلترا ؟. المدخل صعب ، ويكاد يكون مستحيلا ، هل يمكن التصريح بأن ما يحدث في الخفاء هو اوضح من الشمس في يوم صحو ، اذا كان ذلك كذلك ، لم اذن تلك السرية ، وهذه الرهبة ، وذلك الصمت المطبق الذي يحوطهم ؟. هل انا الحر الوحيد ، ام ان الجميع كذلك احرار؟ المشكلة صعبة الحل ، والاجابة في حكم المستحيلة ،ومع ذلك فالتجربة، ربما اثبتت عكس ما افكر فيه . هل يعيشون جميعا في خوف ؟ لا اصدق ولو ان هذا حقيقيا لمات اغلبهم من زمن . هل اتمنى ان يموت قلبي ، فأصبح جثة متحركة ، هل احس في تلك اللحظة انني حقا اعيش ، ام ماذا ؟. الرائحة تفوح في المكان ،الكل يعلم ، والكل لا يتكلم ، سأنقر على الباب نقرة او نقرتين ، ثم اضغط على الاكرة ، وادخل بخطى ثابتة جريئة ، سواء سمح ام لم يسمح ، سأضع امامه الملف ، واسحب احد الكراسي واجلس امامه مباشرة ، سواء اذن لي ام لم يأذن ، ولا شك ان هذا التصرف سيدهشه ، الا ان هذا لا اهمية له على الاطلاق ، لانني بلا جدال سأكون سيد الموقف ،والموقف ليس معقدا ولا ملتويا ، انه بسيط للغاية ، كل ما في الامر ، انني يجب ان اكون ثابتا مدركا تماما لكل ما يصدر عني سواء في الالفاظ او الحركات ، غير ان نغمة التهديد لا تصلح هنا ، من الضروري ان تكون نبراتي مطعمة بالرجاء ولا بأس من ارتعاشات رهبة أو خوف او احترام، عندئذ ربما يصغي الي ، بل حتما سيضغي ، انني احد المقربين اليه ، الست انا الذي ينجز له اعماله التي يتقاضى عليها .. الست انا الذي اجعله يبدو عريقا مهما خطيرا مليئا بالقدرة والسلطان ، الست انا ...

وانتبه الى نفسه وهو يقف امام الباب ، رفع عينيه ، كان الضوء الاحمر قد تلاشى ، اما الساعي الرابض بالقرب من الباب ، فقد ابتسم في وجهه دون اي اعتراض. بالطبع كان عليه ان يدخل ، غير انه لا يدري تماما ما الذي حدث في راسه ، شعر كما لو ان احدا قد ضغط عليها من الجانبين ، وبقلبه ينسحب من مكانه . ولم يكتشف هذا الا عندما رفع يده ليفتح الباب، كانت رعشة مزعجة ، قد انتظمت اصابعه ، وبمجهود عنيف تمكن من القبض على الاكرة . وتذكر انه نسي أن يخبط على الباب ، ولكن ما أصابه جعله يتكاسل عن ترك الاكرة .وخيل اليه ان الساعي ربما لاحظ عليه ذلك ، فالتفت اليه يستجديه بنظرة بلهاء ، غير ان الساعي فهمها على نحو آخر :

— ليس عند المدير احد .. تفضل.

في هذه اللحظة تمنى لو أن كل ما في عقله قد تبدد ، حتى يستطيع ان يدخل وليس في رأسه سوى الارقام المدونة ، والاجابة على اي سؤال . ابتسم للساعي واومأ له شاكرا ، ثم التفت يراقب يده وهي تحاول جاهدة ان تضغط ، واخيرا نجحت في ان تفصل الضلفتين ، وبدأ يزيح الضلفة الخشبية المسمطة امامه وهو يحس بضربات قلبه تتوالى في سرعة واضطراب .وفجأة قرر انه لن يتكلم في شيء .. لن اتكلم .. لن اتكلم ..

ما كاد الباب ينفرج امامه ، ويظهر هيكل المدير ، حتى هم بالتراجع ، ولكن المدير كان قد رفع راسه عن الاوراق المبسوطة امامه ، فما ان رآه حتى رحب به :

— تفضل .. تفضل يا رشوان افندي .

اعتدل في وقفته ، وراح يلم انفاسه ، ولم ينس ان يزرر الجاكتة باصابع مضطربة ، ثم بدأ يخطو الى الداخل . كان المدير يتأمله وهو يقترب ، وقد ظهرت عليه علامات الاستغراب والدهشة ، الا انه لم يعلق على ذلك ، وانما اكتفى بأن مد يده متناولا منه الملف ، الذي كان يهتز في رعشة واضحة ، ففتحه على الفور ، وراح يقلب صفحاته مراجعا ما تم فيه . وحين رفع راسه ثانية ، كان رشوان غائبا عنه تماما ، عيناه متصلبتان ، لونه اصفر يشبه جثة قائمة .

— هل تشكو من شيء يا رشوان افندي ؟

ارتد رشوان الى نفسه ، وان لم يكن قد وعى ما قيل .

— نعم ؟!

— ما لك ؟

— انا .. لا شيء !!

هل انت مريض ؟

— لا يا سيادة المدير .. لا .

— ساعة دخلت ، لاحظت عليك انك غير طبيعي .

لا شيء .

— اجلس .. اريد مناقشتك .

واصطدمت قدماه وهو يقترب من الكرسي ، وما كاد يجلس عليه ، حتى شعر كما لو انه قد سقط من الدور العاشر ، واخذت انفاسه تتوالى : « لن تقول .. لن تقول شيئا .. انا قلت لن تقول .. لماذا اذن انت خائف ؟!! انا لست خائفا وممن اخاف !! هل انا المجرم .. ثم ما شأني انا . »

— رشوان افندي .. اين انت ؟!

فراغ

ما عاد الصبح كما كانا
في أدواح طفحت نورا
ولت آمال جوفاء
كم أخدع نفسي ياواها

فتانا ينسج أحلامي
بل مد يجرف أعوامي
عاشت زمنا في أوهامي
اذ أعبر فيها أيامي

الظل صدى وهج غاف
وعيون الحاضر أحجار
والمقبل مقبرة ثكلى
أنا لحظة عقم ، كنبات

في ماض أسود كالموت
كسلى تتراشق بالصمت
لا أسمع فيها من صوت
لا زهرا ، لا ثمرا يؤتي

يا شط الليل ويا عدم
الحيرة في قلبي كهف
ودمائي تشربها ريح
صرخات الروح تدمرني

أو حقا عندك ما ألقى
وبه طرق تمحو طرقا
فتظل كأشلاء غرقى
لا تبقي في عمري رمقا

القنيطرة ـ سورية

رضوان عقل

ـ موجود يا افندم .

ـ ما الذي تفكر فيه ؟

ـ انا .. لا شيء .. لاشيء .

ـ هل استدعي لك طبيبا ؟

ـ لماذا ؟

ـ اراك مضطربا .

وضغط المدير على الجرس ، فدخل الساعي ، فطلب منه بسرعة كوبا من عصير الليمون .

ـ كلا .. كلا .. شكرا .

قال المدير ضاحكا :

ـ لا بد ان الاحصائية اتعبتك .

وحاول رشوان ان يستبعد من راسه كل الافكار التي دارت به ، الا انه كلما حاول ذلك ، ازدادت الصورة امامه وضوحا : هل تحسبني حمارا ، انا انسان مثلك .. مثلك تماما ، ماذا يعني هذا ؟ انا اعمل واعمل واعمل وانت تأخذ وتأخذ وتأخذ ، حرمت من كل شيء ، وانت تنعم حتى بالهواء المكيف . قل لي ، ما معنى هذا؟ اريد ان افهم ، اصبحت لا افهم شيئا . اسمع لماذا لا تكون صريحا معي ، المسألة في غاية البساطة ، اذا كان الثمن محددا ، بل هو بالتأكيد كذلك ، لم لا تعطيني جزءا محددا اذن .. هل لا بد ان اغتصبه ...

وامتدت يده بطريقة غير واعية واختطفت النشافة . وانتبه المدير ، وكان يقرأ في الملف ، فنظر اليه في حيرة ، ولم ينطق بحرف . اما رشوان فقد كان ذاهلا تماما ، ثم بدات اصابعه تنفرج شيئا فشيئا ، وترك النشافة في موضعها ، وهم واقفا . وكان المدير يتتبعه ، محاولا فهم هذا التغير العجيب الذي طرا عليه . وبدأ رشوان يتقهقر منسحبا . وابتسم المدير قائلا :

ـ لم تشرب الليمون

ـ شكرا لا استطيع .

ـ انت متعب فعلا

ـ هل استطيع ان استاذن ؟

ـ انصحك بعرض نفسك على طبيب .

ـ سأفعل .. سأفعل .

اغلق الباب خلفه ، وهو لا يكاد يحس براسه ، ولكن صوت الساعي جاءه من اول الممر :

ـ الليمون يا رشوان افندي .

اجابه دون ان ينظر اليه .

ـ اشربه انت .

وسار في الممر بخطوات سريعة ، وهو لا يشعر بشيء مما حوله ، واندفع الى حجرته ، وتوجه على الفور الى مكتب «راغب افندي» وهو لا يكاد يشعر بنفسه او بوجوده كله ، ووقف امامه متحديا :

ـ من فضلك سيجارة اخرى .

اطلق راغب افندي ضحكة عالية وهو يفتح الدرج قائلا :

ـ هل ستعود الى التدخين ؟

ـ ربما .. لا ادري .

وجلس رشوان خلف مكتبه وراح يجذب انفاسها في شراهة ولذة غير معهودتين .

القاهرة

مصطفى ابو النصر



عبدالغني العطري

النساء في حياة بشار

بقلم عبدالغني العطري

* * *

جارت يد الاقدار على بشار بن برد ، فحرمته نعمة البصر ، وهو بعد جنين في بطن امه ، فولد وعاش مكفوفا ، وفي قلبه لوعة لا تزول ، وفي صدره حسرة لا تنقضي . واذا ما فقد امرؤ بصره ، فقد خسر نعمة لا تقدر بمال او جاه ، فما بالك بشاعر مرهف يريد ان يصور الجمال ، ويستمد من سحر الطبيعة وفتنة المراة ، صورة حسية لشعره ؟.

ولم يكن بشار ليجهل او يتجاهل انه مكفوف ، فاذا ما اراد ان يتغزل او يصف المراة ، استعاض عن العين بالاذن فقال :

يا قوم «اذني» لبعض الحي عاشقة — والاذن تعشق قبل العين احيانا
قالوا بمن لا ترى تهذي فقلت لهم: — الاذن كالعين توفي القلب ما كانا

وهذا بالطبع ضرب من المبالغة ، فما تنقله العين من صور الجمال الى العقل ، لا تستطيع حواس الاذن واللمس والشم مجتمعة ان تنقله . ومن اجل ذلك نرى ان بشارا لم يفرط في تشبيه محبوباته بغصن البان ، وعيونها بعيون الظبي ، وشعرها بسواد الليل ، وحمرة خدودها بالورد ، بل بالغ في وصف حديثها ورقة هذا الحديث ، وعبر عن شوقه اليها ولوعته . فعل بشار ذلك وان لم يعجزه وصف المراة نقلا عن وصف المبصرين ، او تقليدا وجريا على ما قاله وردده الشعراء الاخرون .

ولكنه آثر ان يتمسك بما تبقى له من حواس ، وان ينقل لنا ما تحسه اذنه على وجه خاص . لنستمع اليه يقول :

وكان رجع حديثها — قطع الرياض كسين زهرا
وكان تحت لسانها — هاروت ينفث فيه سحرا

او يقول :

وحديث كانه قطع الروض — وفيه الصفراء والحمراء

لقد آثر ان يتغزل بحديث محبوبته وصداه في نفسه . ولم يصف او يصور حسنها وجمالها ، لانه كثيرا ما كان يؤثر الصدق في الوصف ، ويحاول ان يدنو من الواقع ما استطاع .

ولعل حرص بشار على الواقع ، جعله يؤثر المراة جسدا لا روحا ، فهو ابدا في شوق الى لقائها ، يريدها اداة لارواء غريزته ، لا روحا تسمو به عن الجنس ، وتلهمه رقيق الشعر .

وبشار جريء في غزله ، جراة تبعده في كثير من الاحيان عن العفة والطهر . كان صريحا في طلب اللذة ، كثير التباهي بما لا يحق للانسان ان يجهر بالتباهي به . كان ابن برد ينظر الى المراة نظرة بهيمية مطلقة ، فهي في نظره جسد يشتهى ، ولا يتعذر الوصول اليه لمن يرغب به ، ويحرص عليه :

قاس الهموم تنل بها نجحا — والليل ان وراءه صبحا
لا يؤنسنك من مخباة — قول تغلظه وان جرحا
عسر النساء الى مياسرة — والصعب يمكن بعد ما جمحا

ونظرة بشار هذه الى المراة ، منها كثير من الغلو والتجني ، وهي ان دلت على شيء ، فانما تدل على المستوى الخلقي الذي تردت فيه المراة في العصر العباسي ، وبوجه خاص النساء اللواتي كن يحطن ببشار ، لينعمن بمجلسه وشعره وحديثه .

ولبشار عدد لا يحصى من المحبوبات ، عرفنا منهن اللواتي وردت اسماؤهن في اشعاره وهن : عبدة ، وسعدى ، وسلمى ، وسليمى ، وحبابة ، وطيبة ، واسماء ، وصفراء ، والرباب ، وام وهب ، وهند ، وبانه ، وغيرهن كثيرات ... ولكل من هؤلاء النسوة مكانة في قلب بشار ، ذلك القلب الذي يشبه فندقا من الدرجة الاولى في عصرنا هذا ، يتسع لجيش من النزلاء والمسافرين والسياح ، وطلاب المتعة والراحة واللهو !..

وبالرغم من ذلك فبشار يشكو الوجد ونار الحب والجوى ، كأي عاشق متيم ، ولكنه لا يلبث ان ينسى عشقه المزعوم ، ويردد شكواه نفسها لمحبوبة ثانية وثالثة وعاشرة !.

وقلما نجد في غزل بشار لوعة المحب وحرقته التي نجدها لدى الشعراء العشاق ، مما يؤكد ان بشارا اراد ان يغطي باب الغزل في شعره !. ومن يقرا هذا الغزل الكثير في محبوبات بشار ، يؤمن بان الشاعر كان زير نساء ، لا عاشقا متيما .. فهو دائما يسأل عن الوعد ،

ويبحث عن اللقاء ، ويطلب ساعة صفو .. اما الحب ولوعته وحرقته ، فقلما نجد لها اثرا في شعره ، وحتى اذا وجدت فان اثر التكلف فيها يبدو واضحا مشرقا .

وبالرغم من هذا فان لبشار غزلا يعتبر من روائع الشعر ، جاء في الجزء الاول من امالي المرتضى :

« قيل لأبي حاتم : من أشد الناس ؟ قال الذي يقول ، ويعني بشارا :

ولها مبسم كثغر الاقاحي   وحديث كالوشي وشي البرود
نزلت في السواد منحبة القلب   ونالت زيادة المستزيد
عندها الصبر على لقائي وعندي   زفرات ياكلن صبر الجليد

وجاء في«زهر الآداب» ان ابا تمام روى لبشار قوله:

انا والله اشتهي سحر عينيك   واخشى مصارع العشاق

وقال : ما رايت شعرا اغزل من هذا .

وسئل ابو عمر بن العلاء : من ابدع الناس بيتا فقال : الذي يقول :

لم يطل ليلي ولكن لم انم   ونفى عني الكرى طيف الم
خففي يا عبد عني واعلمي   انني يا عبد من لحم ودم
ان في بردي جسما ناحلا   لو توكأت عليه لانهدم

وقال بعضهم : « عهدي بالبصرة وليس فيها غزل ولا غزلة الا يروي من شعر بشار ، ولا نائحة ولا مغنية الا تتكسب به ، ولا ذو شرف الا ويهابه ويخاف معرة لسانه. »

قلت ان لبشار عددا لا يحصى من المحبوبات ، واشهر هذه دون منازع «عبدة» ، اذ انها اكثرهن ذكرا في شعره ، وتكن بام العلاء ، وكناها بشار مرة بام عمر ، ومرة بأم الوليد ، وسماها عبيدة وعبادة ووصفها بالزلفاء. وقد زارته ذات مرة في مجلسه مع نسوة فاحبها وكاشفها امر حبه بوساطة غلامه ، فهشت له وبادلته حبا بحب ، وكانت دائبة على زيارته . وقد تزوجت من رجل سماه بشار بابن قائد . ومن قوله في عبدة :

يا عبد حتام لا القاك خالية   ولا انام ؟. لقد طولت تعذيبي
اهديت لي الطيبفي ريحانساحرة   يا عبد ريقك اشهى لي من الطيب
اهدي لنا شربة منه نعيش بها   ان كنت مهدية روحا لمكروب
ان البغيض الينا لا نطالبه   ذاك الهوى ، وحبيب الكل مطلوب

ويقول فيها أيضا :

يا عبد زوريني تكن منة   لك عندي يوم القاك
والله ثم الله فاستيقني   اني لأرجوك واخشاك
يا عبد اني هالك مدنف   ان لم اذق برد ثناياك
فلا تردي عاشقا مدنفا   يرضى بهذا القدر من ذاك

ويقول فيها أيضا :

يا عبد يا جافية قاطعة   اما رحمت المقلة الدامعة
يا عبد خافي الله في عاشق   يهواك حتى تقع الواقعة

وفي هذا الشعر وغيره يبدو اثر التكلف والصنعة . ولا يمكن للناقد ان يقنع بحال ان صاحب هذا الشعر عاشق مدنف تيمه الحب وشفه الهوى .

وكيف يمكن للناقد ان يقنع بأن بشارا يحب ويعشق ويؤرقه الهوى ، وهو الذي يعرف الحب بقوله :

وما الحب الا صبوة ثم دنوة   اذا لم يكن كان الهوى روغ ثعلب

ولو كان بشار شابا ساحر العينين ، ممشوق القامة ، جميل الطلعة والمحيا ، شأن ابن ابي ربيعة ، لما كان في مغامراته الفاضحة مدعاة لعجب ودهشة ... ولكن الطريف العجيب ، ان بشارا كان مكفوف العينين ، ضخم الجثة ، ثقيل الظل، قليل العناية بنظافته وملبسه..

وبالرغم من ذلك فان شاعرنا لم يكن يهوى النساء الا صغيرات ابكارا .. ولم يكن بشار عزبا ، بل كان متزوجا وزوجته تدعى «امامة» ، كما جاء في شعر هجاه به حماد عجرد .

ومن اخبار بشار أنه كان يهوى جارية شاعرة ، ذات ادب وظرف ، وكانت تحبه على قبحه ، فواصلته وامكنته، وكان ينثر المال الذي يتكسب به بين يديها . وغضبت الجارية على بشار وأعرضت عنه فقال فيها :

تسيء ولا تستنكر السوء انها   تدل بما تبلوه عندي وتعرف
فمن اين استعطفتها لم ترق لي   ومن اين ما جربت صبري يضعف

وشعر بشار لا يخلو من تقعر وغرابة ، بل فيه نفحة جاهلية بدوية ... ولكنه اذا ما تغزل عمد الى رقيق الالفاظ وخفيف البحور . واكثر غزله من بحور البسيط والرجز والرمل والخفيف والسريع .

ومن طريف غزل بشار ، قوله الذي جاء به على طريقة الرسائل :

من المشهور بالحب   الى قاسية القلب
سلام الله ذي العرش   على وجهك يا حبي
فاما بعد يا قرة   عيني ومنى قلبي
ويا نفسي التي تسكن   بين الجنب والجنب
لقد انكرت يا عبد   جفاء منك في الكتب
أعن ذنب ولا والله   ما احدثت من ذنب
ولا والله ما في الشرق   من انثى ولا الغرب
سواك اليوم اهداها   على جد ولا لعب

ومن روائع غزله قوله :

جئت مستشفيا اليها لما بي   وشفاء المحب عند الحبيب
فاتقي الله يا حبيب وجودي   بشفاء لعاشق مكروب
نام أصحابه وبات مكبا   في اعاجيب من هواك العجيب
ليس بالمبتغي سواك ولا البا   ئع منكم نصيبه بنصيب

ولبشار قصة معروفة مع امرأة يقال لها «أمامة» فقد ظل يبعث اليها بغلامه يطلب اليها امرا ، فكانت تصد وتمتنع . فلما ضاقت به ذرعا اخبرت زوجها ، فقال لها اجيبيه وعديه ان يأتي الى هنا . فلما جاء بشار مع امراة اوفدتها «امامة» اليه ، دخل وزوجها جالس ، فجعل يتحدث اليها غير عالم بوجوده . ثم قال بشار :

امامة قد وصفت لنا بحسن   وانا لا نراك فالمسينا

فاخذت يده ودفعتها الى زوجها . فقفز بشار مذعورا وقال :

علي الية ما دمت حيا   احسك طائعا الا بعود

ولا أهدي لقوم انت فيهم   سلام الله الا من بعيد !..

وقصص مجونه ومغامراته وتبذله كثيرة لا يصح ان تروى في مقام كهذا ، فليلتمسها من شاء في بطون الكتب الصفر ، فهي لا تخلو من طرافة ، وتعطي عن شاعرنا الماجن صورة اكثر وضوحا وصدقا .

ولبشار قصيدة مشهورة مطلعها :

قد لامني في خليلتي عمر   واللوم في كنهه ضجر

في هذه القصيدة يروي قصة مغامرة من مغامراته حين التقى محبوبته في غفلة من ذويها ، ونقل في حوار فاحش ما دار بينه وبينها ، وما قالته له ، وما قاله لها . ولعل بشارا اراد ان يقلد بهذه القصيدة القصص الغرامي، الذي برع به عمر ابن ابي ربيعة . ولكن عمر لم يفحش كما افحش بشار ، ولم يتبذل في لفظه ومعناه كما فعل بشار.

هكذا كانت نظرة بشار الى المراة .. وهكذا كان رايه فيها . وقد سئل ذات يوم : اي متاع الدنيا اثر عندك ؟. فقال : « طعام مز ، وشراب مر ، وبنت عشرين بكر ». هذه هي الحياة عنده : طعام وشراب ونساء صغيرات ابكار . اما هو فقد كان كما وصفه الاصمعي :

« ضخما عظيم الخلق والوجه ، مجدورا ، جاحظ المقلتين ، قد تغشاهما لحم احمر ، فكان اقبح الناس عمى ، وافظعهم منظرا . وكان اذا اراد ان ينشد صفق بيديه وتنحنح وبصق عن يمينه وشماله ، ثم ينشد فياتي بالعجب » .

ولو حاولنا ان نقارب بين نظرة بشار الى المراة ، ونظرة المعري اليها — وكلاهما مكفوف البصر — لرايناهما على طرفي نقيض . فبشار كان متهالكا على المراة ، يراها جسدا لا يرتوي منه ، والمعري يرى انها اداة فساد وافساد :

فوارس فتنة اعلام غي   لقينك بالاساور معلمات

وكان ابو العلاء يصب سخطه على الحياة وكرهه لها على المراة ، وهو لا يراها تصلح الا اداة نسل .. وما اكره النسل الى ابي العلاء !. ويطلب ان تحمل المراة المغزل بدلا من اليراع :

فحمل مغازل النسوان اولى   بهن من اليراع معلمات
فما عيب على الفتيات لحن   اذا قلن المراد مترجمات

ونظرة المعري الى المراة نظرة سوداء قاتمة ، يتجلى فيها سوء الظن ، والشك الفاضح بسلوكها وخلقها . ولسنا في مجال تفصيل نظرة ابي العلاء الى المراة ولكننا اردناها مجرد مقارنة خاطفة لنظرتي شاعرين مكفوفين اليها : الاول اقبل عليها متهالكا ، يطلب عندها اللذة والمتعة ، والثاني التزم جانب التزمت والوقار وسوء الظن ، فزجر نفسه ، وانصرف عنها ، وحذر الناس من فتنتها ، وغيها وفسادها . الاول كان يحاول ان يبرهن على قوته ، ويعوض ما فقده بحاسة البصر باثبات وجوده وتهالكه على الحياة ، والآخر عظمت عليه كارثة فقد البصر، فاعتزل الناس وكره الحياة ، وانصرف الى تاملاته وشعره وفلسفته ، وقال في ذلك :

اراني في الثلاثة من سجوني   فلا تسال عن الخبر النبيث
لفقدي ناظري ولزوم بيتي   وكون النفس في الجسم الخبيث

والذي يبدو لنا ان سوء الظن بالمراة لم يكن من نصيب المعري وبشار وحدهما ، بل ان معظم المكفوفين — ان لم نقل كلهم — كانوا يسيئون الظن بها ، ولعل لهم عذرهم في ذلك . ان فقد البصر يخلق في المكفوف عقدة ، ويجنح به الى اليأس والتشاؤم . رووا ان رجلا اعمى تزوج امراة دميمة فقالت له : رزقت احسن الناس وانت لا تدري . فبادرها قائلا : « واين كان البصراء عنك قبلي ؟..»

وبعد ... فقد ظلم الشاعران الكبيران المراة ، فبشار لم يرها الا جسدا لا روح فيه ، والمعري من خلال نظرته السوداء الى الحياة ، ارادها ان تظل جاهلة مجهولة ، وان تلزم عقر دارها ، لتبقى عضوا اشل ، بل مبتورا من المجتمع . والمراة غير ما ارادها الشاعران ... انها روح المجتمع ، ومبعث حيويته وحرارته وفعاليته .

دمشق   **عبدالغني العطر**

الى أمي

قبرك ، يا رفيقة الرياح والمطر
تنفث ، منه ، في دمي ، رائحة الموت
... ترعش ثكلى ، بين أضلاعي :
صرخة ميلادي ،
طفولتي ،
خطا .. خطا في غربتي ،
بين قرى الصمت .

... كفك تمتد ، بلا أنامل ،
ودونما عروق
تهز ، في صدري ،
أجراسا بلا صدى ...
فيرتمي فمي على التراب :
الشمس كأس علقم ...
يشربها الحجر
وينتهي صوتي .

بغداد   حسين جليل



اميل توفيق

صور وانطباعات من رحلاتي في السودان

بقلم اميل توفيق

* * *

٥ ــ رحلتي الى ود مدني

عندما رجعت من القاهرة في اواخر اغسطس ١٩٦٢ ، وجدت في انتظاري انتدابا للعمل في ود مدني لكي احل محل احد الزملاء المتغيبين .

وفي اوائل سبتمبر كنا ثلاثة رفقاء نسافر معا من بورسودان الى الخرطوم . واستغرقت الرحلة اربعا وعشرين ساعة . نزلنا بعدها بالفندق الكبير حيث مكثنا ثلاثة ايام ، استكملنا خلالها كل الاجراءات التي تتعلق بالندب وبالسفر . وعندما استأنفت الرحلة الى ود مدني رافقني احد الزميلين ، وكان منتدبا لتدريس الجغرافيا بمدرسة البنات الثانوية .

كانت الرحلة قصيرة اذا قورنت بالرحلات الاخرى اذ استغرقت ست ساعات فقط ، استمتعنا خلالها بصحبة بعض الموظفين السودانيين المسافرين الى مهام بعيدة . وقد كانت احاديثهم معنا ممتعة شائقة تناولت بعضا من قضايا الادب والاجتماع في السودان ، كما مست مشكلة الجنوب ، والقومية السودانية . كما دار الحديث حول ما سنقابل من مشروعات مثل مشروع السكر في الجنيد ، ومشروع الجزيرة لزراعة القطن .

وبهذه المناسبة اذكر ان اية جماعة في رحلة من الرحلات ، لا تجد انسجاما او ائتلافا او متعة الا حيثما تلتمس العنصر المشترك او العناصر المشتركة التي تجمعهم معا ، سواء كانت هذه العناصر اجتماعية ام عقلية ام وجدانية مزاجية .

وفي السفر ، عادة ، يتحدث الناس الى بعضهم فيطرقون شتى الوان الحديث ، حتى اذا ما اكتشفوا انفسهم في حقل مشترك ، بدات اطراف الحديث تشد القلوب والاسماع ، وتجتذب النفوس . بل لقد يحدث احيانا ان الاتجاهات العقلية المشتركة تجذب اثنين او اكثر من الجماعة فيتعاونون ويتآلفون ، وفي هذه الحالة ليس من المستبعد ان يأتلف البعيدون فيتقاربون . ذلك ان العاطفة الانسانية المتألقة بالفكر والفن والوجدان انما تؤلف بين الافهام الصافية وتوحد بين القلوب النيرة . ورب سائل يسأل : ولماذا في الرحلات ؟ وجوابي ان في الرحلة هناك حركة والحركة مرادفة للحياة ، وعلى قدر طاقة الانسان ، يتحرك فكره او وجدانه ويبدو اتجاهه واضحا ، وكل اناء في حركة الحياة يظهر بمعدنه الاصيل .

وعندما وصلنا ود مدني نزلنا بفندق «الكونتننتال» واجدني الان احيل القارىء الكريم الى مذكراتي التي دونتها كما وردت بتواريخها .

٩ ــ ٩ ــ ١٩٦٢ : شرفة الشاي بفندق الكونتننتال : امامنا النيل الازرق بمياهه الجارية في سرعة كبيرة . ان المياه قد علت عن ذي قبل ، وهي ملأى بالطمي . ان الاشجار على جانبي شاطئه . والمنظر الذي امامنا يمثل دوحة كبيرة او بالاحرى واحة فيحاء هي واحة حنتوب حيث اقيمت مدرسة حنتوب الثانوية . اما ما نراه هو لوحة هائلة رائعة الجمال للطبيعة الحية حيث تدب الحياه في اطار الهدوء والسكون فالطيور تنتقل من شجرة الى اخرى رافعة مناقيرها الى اعلى والعصافير الصغيرة تمرح من فنن الى فنن ، والشمس تظهر حينا وتغمر المكان بصفحة ذهبية ولا تلبث ان تختفي وراء السحب ، ليخلفها صفحة من الظل الوادع . انني اسمع الزقزقة من اعلى والنقنقة من اسفل ، وهذه حشرات هائمة تقبل الازهار الجائمة على النباتات الارضية في حركة مستمرة . وبين الحين والاخر ينهمر من السماء رذاذ خفيف لا يلبث احيانا ان يشتد ، وحركة الرياح خفيفة رقيقة تهتز لها الافرع والافنان ، كانما هي دغدغات الام الحانية لطفلها الوحيد ، انني احس ان ما اسمعه وما اراه من اسماع مختلفة ورؤى متفاوتة ، في هذه اللوحة الرائعة ، انما تتناسق معا مع ما احسه في اعماقي . وكانما يشارك القلب الشاعر ، حركة الطبيعة ، ليصبح جزءا منها . . من تلك النفثات الحالمة ، وكانما كل اليف من هذه الطبيعة يناجي صنوه ليرقص معه رقصة الحياة . او كانما كل عضو من اعضاء الطبيعة ، قد قدر ان يكون في موقف معين من جوقة موسيقية لينشد الجميع اغنية واحدة في توقيع متناسق بديع ، وكانما الانسان ينبغي ان يكون هو

«المايسترو» الذي يقود اعضاء هذه الجوقة المبدعة او في القليل يريد ان يترجم من وحي قلبه معاني تلك الاغنية الرائعة ليصبح هو المؤلف لهذه السيمفونية الفائقة .

١٣ - ٩ - ١٩٦٢ : في المدرسة الثانوية : في وقت مبكر انتهيت من الدرس . وخرجت الى الخلاء فانتقلت من العقليات الى الوجدانيات . ان التأمل الصافي هو الصلة الرفيعة بين العقل والوجدان. المدرسة في قلب حديقة . والحديقة في قلب مزرعة كبيرة هائلة . هنا الخضرة والازهار ، والافق الفسيح . انني احس انطلاقا لطاقة وجدانية تبغي أن تعبر عن ذاتها . انني اسميها عاطفة الوجود السامي او «ضمير» العاطفة الوجودية او بلغة ابسط ذلك الشعور الذي يلتهب به انسان يحس الطبيعة في جمالها .. ويشعر عمق الحب في قلبه . انني اتذكر طاغور الشاعر الهندي العظيم الذي يربط بين الجمال الذاتي للطبيعة والوظيفة . جمال الزهرة ووظيفتها . الجمال الذي سيفنى والوظيفة التي ستتكرر . لست ادري هل في الوجدان منطق فكري ؟ لكنني اراني وأنا اتأمل الطبيعة احس بوحدة التفكير الذي يجمع بين العقل والشعور ، بين الحس والعاطفة ممتزجين متآلفين .

هاأنذا اسير بعيدا عن اسوار المدرسة لاصل الى حقل مترامي الاطراف تحدد معالمه بعض الطرقات والقنوات . وهنا وهناك تجد بعض الفلاحين وبعض الحيوانات كالحمير والابقار ، وبعض الاشجار التي عملت فيها يد الانسان بالاقتلاع والحرق . وبين الحين والاخر يهبط رهط من الطيور تشبه الهداهد .

ان البصر يمتد فيسبح في خضرة هادئة وقد بللها المطر وكانما هو يد حانية تمسح جبينا حبيبا . انني ارى القناة الرئيسية التي تروي أرض الجزيرة تحددها أشجار باسقة تحنو على الافق وتبدو من بعيد حيث اقف كانما هي أياد متشابكة متعاونة ، لتقاوم الغوائل والعواصف والرعود .

١٨ - ٩ - ١٩٦٢ : دعيت اليوم مع بعض الزملاء في المدرسة المصرية لزيارة «حنتوب» على الشاطيء الشرقي من النيل الازرق . ركبنا الزورق البخاري ، وعبرنا النهر ، وقصدنا منزل الاستاذ الداعي حيث تناولنا الشاي في حديقة داره (وهناك منازل معدة لاعضاء هيئة التدريس) ثم اخذنا نتجول في أبهاء المدرسة وتحتوي على ملاعب مختلفة وهي تزيد على اثني عشر ملعبا كلها حدائق غناء مخططة ومنسقة ومتشابكة فيها الاشجار والشجيرات عند حدودها بشكل يبهر الابصار .

وقد وجدنا الطلبة (وجلهم داخليون) موزعين على تلك الملاعب (تنس. كرة قدم. كرة سلة. كرة فولي.الخ) ومما يلفت نظر الزائر أول وهلة ذلك الجرس المعلق بمدخل المدرسة وله قصة تاريخية . فقد أهداه للمدرسة ناظرها الانجليزي الاسبق عندما كان يشغل المنصب وقت انشائها قبل استقلال السودان واحسب انه جرس احدى البواخر، عندما كان ذلك الناظر يعمل قبطانا لها (على حد ما زعم الرواة) .

وقد توجهنا بعد رجوعنا الى الشاطيء الغربي الى نادي الجزيرة وهو يعد أهم ناد في المدينة ، وقد ضمت جلستنا بعض الزملاء والزوار ، ومن هؤلاء مفتش قادم من الخرطوم وطبيب مصري ومهندس هندي ، والاخيران قادمان من قرية قريبة تبعد حوالي ٥ كيلومترات من ود مدني وهما يعملان في منظمة الصحة العالمية فيشرفان على حل المشكلات الصحية والاجتماعية لتلك البيئة الريفية وخاصة النهوض بصحة الاطفال .

ونادي الجزيرة عبارة عن حديقة Park بداخلها مبنى فخم يشتمل على مطعم ونزل وصالونات وشرفات للجلوس مطلة على النيل . وفي الحديقة بعض الملاعب كالتنس والفولي بول وبعض الالعاب المسلية للاطفال كالمراجيح وغيرها . ومعظم رجالات المدينة واسرها تقصد هذا النادي ، وهو قاصر على اعضائه وان كان يستقبل الزوار أيضا .

كانت جلستنا على شرفة تطل مباشرة على النيل وعلى واحة حنتوب . النيل كان منسوبه عاليا ولكنه آخذ الان في النقصان . تمر من أمامنا بعض زوارق الصيد ، وبعض مراكب النقل النهري . بعض الانوار تظهر خافتة على الضفة الاخرى - اما انوار النادي فليست جميعها مضاءة لقد استعاضوا عنها بالاضواء الحمراء المتفرقة هنا وهناك وذلك لمقاومة تراكم الحشرات .

على بعد منا توجد شرفة اخرى في مستوى أعلى ، وفيها تجلس بعض العائلات ، واولادهم يجرون ويلعبون. يمثل المجتمع خليطا مصريا سودانيا ، ويدل على ذلك ما تلوك به الالسنة او تلهج من أحاديث أو من اغنيات يرددها الاطفال .

كان حديثنا متشعبا . قالوا عن المدينة ان أساس تسميتها انتماؤها الى الشيخ مدني او ولد مدني الذي عرف بالصلاح والتقوى . أما أهميتها الحديثة فترجع الى انها أصبحت مركزا هاما لمشروع الجزيرة للقطن . ان القناة الرئيسية التي تروي الارض تستمد مياهها من البحيرة المائية المتكونة خلف خزان سنار في مدينة سنار على بعد ٩ ساعات من مدني تقريبا . وهذا المشروع هو أهم المشروعات الثلاث المائية في السودان : خزان سنار وأرض الجزيرة - وخزان خشم القربة واراضي حلفا الجديدة - ومشروع القاش في كسلا . كما أن المدينة تشتهر بصناعة البيرة .

أما الحياة الاجتماعية في المدينة فتمثلها قطاعات مختلفة . فهناك المجتمع الشعبي الذي يشابه مجتمع أم

حلم

*

حلم رف وطار
وصحا قلبي على زهـو النهار
وتجلى طيف أحلامي على شط الضياء
راجف الزندين ، محسور الرداء
أي حلـم مستلذ همـر النور وطار
في جنـان طرزت فلا ونسرينا وغار
في بلادي تهرق الشمس كنوزا من نضار
وكروما مـن ثمار
وتلالا مـن غمار

من بعيد كانت الشمس تموت
في مجاهيل السمـاء
ومتاهات الفضـاء
وعلى اجفانهـا فجر اخضرار
شع في الآفاق صحوا وافترار
ورشاش العطر تذروه الرياح
في مروج زاهيات لفهـا أبهـى وشاح
من ورود وزهور وأقاح
ورياحين مـلاح
أي لحـن ناعم البوح مثار
بح فـي حلـق الكنـار
أتراه سئم الشدو فطار ؟؟
هجـر العش وطار
لا .. ففي جنبيه جرح مستثـار

في ربيع راعش الزهر نضير
كان حسـون على شط الغدير
كان يروي للينابيـع حكايا
عن لذاذات هوايـا
ويقـول
للحقـول
شاعر افلت من فردوسه
واتى هذي الديار
يغزل الاجواء عقدا وسوار
ويغنـي
في ليالي عرسـه
للازاهير النثيـرة
غنوة ساحرة اللحن مثيره
من أغاني ألف ليله
حلم رف وطـار
وصحا قلبي على زهو النهار

دمشق صالح درويش

درمان ويمثله رواد المقاهي الشعبية والنوادي الصغيرة . اما الصفوة فتتمثل في ندوات نادي الخريجين ، فضلا عن جلسات نادي الجزيرة الذي يضم ايضا كبار الموظفين والاجانب على السواء . وهناك المجتمعات الخاصة ، كمجتمع النادي القبطي ، ومجتمع النادي العربي الذي يضم هيئة التدريس المصرية ومعظم افراد الجالية . كما توجد جالية هندية صغيرة ، معظم افرادها من التجار . ولها مدرسة خاصة بتعليم الاطفال الهنود .

٢٠ - ٩ - ١٩٦٢ : اكتشفت وجود مكتبة البلدية في مبنى صغير لا يبعد كثيرا عن الفندق . انني في المكتبة اشعر بمزيج من الطمأنينة والمغامرة العقلية ، بل وبنوع من الانتماء الفكري الى هؤلاء الذين يقدمون ابحاثهم في كتبهم . فكم هي متعة جميلة ان تقرا كتابا عن النيلين فتحيا في التاريخ القديم ، وانت تجاور منابع البيئة النيلية في معاصرة لشعبها الحديث . فان في ذلك تعميقا للوجدان التاريخي ، وتوسيعا للافق الثقافي ، بل وتوثيقا للارتباطات الوطنية . ومع ذلك فانني في الغربة اجدني لا أستطيع مواصلة القراءة الجادة بقدر ما اميل الى ان ادرس وان اتعرف على معالم البيئة ، وخصائص الشعب ، وان استمتع بمباهج الطبيعة الحية . ان البيئة المحيطة كتاب مفتوح حقيق بالدرس والتأمل .

في منتصف الليل ، قامت زوبعة كبيرة . دوامة هوائية عاتية . اعقبتها عاصفة رعدية ابرقت معها السحب واضاءت بشرارات كهربية خاطفة . لقد تسلل الخوف الى نفسي وتوجست من العواقب خاصة وقد كنت قد سمعت منذ يومين بالاثر المدمر لعاصفة من هذا النوع صعقت بعض الابقار في حقل من الحقول القريبة من المدينة . ان الطبيعة تغضب ، والانسان ينفعل بالخوف ، الذي ينقلب في معظم الاحيان الى المقاومة والنضال والتغلب على قوى الطبيعة الغاضبة . لقد مر العقل الانساني بمراحل عديدة لهذه المواقف ، وقد تألق بفعل الغريزة لا لكي يهرب فقط او يحتمي ولكن لكي يقاوم ويخضع الطبيعة بالعلم والحيل العلمية . ومن العجيب انني اسمع زقزقة الطيور الصغيرة على الاشجار وسط تلك القوى الهائجة ولكانما هي تحتمي في جيوب الاغصان في وداعة وايمان ، وترنم اغنيات الطمأنينة والسلام . انني اراني اشارك هذه المخلوقات الوادعة ايمانها ورجاءها في الحياة . ان الايمان هو الحلقة التي تجمع بين النقيضين ، اذ يحول غضب الطبيعة الى امن ، وجبروتها الى اطمئنان ودعة وهدوء .

الايمان يؤلف بين النقائض لان الحياة في نفس الانسان تبغي الانتصار وليس اسمى من انتصار الايمان .

وعندما سكنت الطبيعة ، كانت الشمس قد اشرقت بنورها ليوم هادىء جديد .

شبين الكوم - ج٠ع٠م امیل توفیق



يوسف عبدالمسيح ثروة

الحرب وشخصية الام لدى برخت

بمناسبة مرور عشر سنين على وفاة عملاق المسرح الالماني

بقلم يوسف عبد المسيح ثروة

* * *

لبرخت قدرة جبارة على تناول الموضوعات الانسانية ، في شتى صنوفها وضروبها وفي مختلف مناحيها وأرجائها ، فهو حين يكتب في هذه الشؤون لا يكتب بالحبر الاعتيادي ، انما يكتب بحبر قلبه . ولذا تجد في أدبه حيوية طافحة تمليها بساطة شفافة وعاطفة غامرة وشعور وجداني عميق ، وارادة خيرة عميمة.فشخوصه لا يمثلون أدوارا بالمعنى الاعتيادي من الكلمة بل يعرضون مواقف انسانية تقتضي الدراسة والمناقشة واستخلاص النتائج واستلهام المواقف المقابلة لها ، واستنهاض موهبة التمييز ، واستنفار العزيمة على تغيير المقاييس والمعايير ولفت الانظار الى الواقع المر الذي يعيشه البشر . انه لا يريد من المشاهد ان ينسجم مع الاحداث انسجاما سلبيا بل ان يرصدها رصيدا ايجابيا ، وهو لا يريد منه ان يستنزف فعاليته في الاندغام في الاحداث ، وبذا تضيع شخصيته ، بل على الضد من ذلك يريده ان يوقظ تلك الفعالية من سباتها وان يكون انعكاسا للعالم الذي يعيش بازائه لا تجربة حية من التجارب التي تعيش في هذا العالم .انه لا يريده ان يكون اداة منفعلة ، يتلاعب بها الايحاء والتأثير والتخدير ، بل قوة فعالة عاقلة تسمو بالاحساسات الى منزلة رفيعة من الوعي العقلي ، لا يشارك في الاحداث كي يتمكن من الصمود امام سيلها الجارف ، اذ ان معاناة الاحداث تعني فقدان الارادة المستقلة وتبعا لذلك فقدان المواجهة والمدارسة ورصد الامور رصدا رزينا معقولا . ومن هنا ينبغي الا (يفرض ان الانسان كائن معروف) بل ينبغي ان يوضع موضع التقييم والدراسة والبحث ، وسبب ذلك ان الانسان ليس كائنا ساكنا لا يتغير بل هو قوة قابلة للتغيير وقادرة على التغيير ايضا .

هذا تلخيص لفلسفة المسرح الملحمي الذي ابتكره بريخت ابتكارا ، وبذا فهو لا يقف ازاء المسرح الشكسبيري والاغريقي فقط بل ازاء جميع المسارح الاخرى وجها لوجه ، ومن هنا كانت الزوبعة التي اثارها لا في اوروبا حسب بل في العالم ايضا ، وهي تلك الزوبعة التي اقتلعت كل المفاهيم الفلسفية القديمة من جذورها وبخاصة ما له صلة بالمسرح كنظرية الوحدات الارسطية ، التي اعتمدها المسرح الاوروبي زمنا قديما حتى جاء شكسبير فنال منها ما نال وارتضى منها ما ارتضى . لكن هذا الاقتلاع للمفاهيم الفلسفية لم يحل دون بقاء المسرح الكلاسي متمتعا ببعض القوة ، على الرغم من انه افسح في المجال واسعا امام المسرح البرختي الذي اخذ مكانه الشرعي بعد ولادة طبيعية لا غبار عليها وبعد ارهاصة كان فيها فضل كبير لبوخنر وهاوبتمان الكاتبين الالمانيين العظيمين .

ان تبعة تعريف الانسان من جديد تبعة ثقيلة لا يتحملها كاهل هش ، لكن كاهل بريخت كان من القوة والمتانة بحيث تحملها وكأنها سلة من ريش . والفضل الاكبر في ذلك يعود الى مفاهيم بريخت الجديدة ، في أصالتها الانسانية وجديتها الاخاذة ، وجهاديتها الفعالة ، وتماسكها المنطقي الرصين ، وواقعيتها الايجابية البناءة ، وسلامتها التامة من اوزار المخلفات المتكلسة واستنادها الكلي الى المنطلقات العلمية والتزامها الاختياري بقضايا الانسان الحديث الذي واجه الحرب العالمية الثانية بقلب قد من فولاذ ، وخرج منها منتصرا بعد ان قدم العدد الهائل من القرابين الزكية ، وهو يعلم اعمق العلم واوسعه واشمله ، لماذا كانت تلك الحرب ولماذا كانت الحروب بأسرها ضريبة مفروضة عليه ، لا مفر لها منه ، ما دام الذين يملكون لا يزدادون الا غنى بالحروب ، وما دامت الوفود البشرية مستعدة للموت بتأثير الف شعار وشعار ، ، وفي الجهتين المتقابلتين من ساحة القتال الواحدة نفسها .

وهذا العلم بحقيقة الحرب هو الذي دفع ببرخت الى ان يكتب مقالة باللاتينية يعلل فيها هذه الحقيقة ولم يكن قد تجاوز الثامنةعشرة من عمره تحت عنوان ((ما احلى وما اجمل الموت في سبيل الوطن ..)) واذا عرفنا ان بريخت كتب هذه المقالة لتكون بحثا يقدمه للمدرسة الثانوية التي كان يدرس فيها ، وعرفنا ان الحرب الاولى كانت في سنتها الثانية وكان الالمان في أوج انتصاراتهم ، لما تعجبنا من محاولة طرد بريخت من مدرسته .. وهذا دليل قاطع على بواكير ذكائه الخارق الذياستطاع ان يميز بين الخير والشر ، بين السياسة بصفتها فنا غوغائيا كاذبا وبين الحقيقة باعتبارها واقعا مرا ، ومن هنا التمعت في ذهنه الثاقب بوارق التناقض الهائل بين واقع الناس المر وبين ما سطر في الكتب من خيال مجنح يريد هذا الواقع ان يتزحزح اليه بعد ان كان يرنو اليه بكلتا عينيه ...

وطبيعي ان تكون الام اول من تحس بالحرب وتشعر بها وتدركها ، لانها الانسانة التي يظل الفقدان يعتصر قلبها وينخر وجودها ويمزق ذاتها ويمتص حيويتها ويبعثر احلامها ، وهل اشد من فقدان الوليد على من تأتي به الى هذا الوجود ترقبا منها في ان يكون محط آمالها ومقصد أمانيها وتجسيد شخصيتها ، وهي التي ما ان ترى باصرته تكتحل بسنا الضياء ، ونفسه يسري في حناياه ودمه الطري يجري في عروقه ،حتى تأخذها النشوة كل مأخذ ، وتستبد بها الامومة استبدادا حلوا فتطغى عليها حتى تستحيل كل حركة من حركات وجودها الى نغمة عذبة تتجاوب باتساق وانسجام مع كل صوت ينبعث من وليدها ، من كبدها ، من وجودها الجديد ، من عالمها المتغير ابدا ، من اتصال السلالة البشرية بغير انقطاع ، لولا الحرب ، الا لعنة الام على الحرب وعلى من يشعلها ويديرها ويسيرها ، واليكم هذا المشهد المفجع من محاكمة لوكوللوس لوحة قانية لمعنى الام الثكلى (١) :

((لوكوللوس : كيف يحكم على الحرب من لا يعرف شيئا عنها ؟

بائعة السمك : انا أعرفها . ولدي سقط في الحرب صريعا .
كنت بائعة سمك في السوق عند ((الفوروم)) (٢) . وذات يوم ، قيل لنا ان السفن التي تحمل العائدين من الحرب في آسيا قد دخلت الميناء.

اسرعت أجري من السوق ووقفت على شاطىء التيبر ساعات عديدة ، حيث كانوا يفرغونها .

وفي المساء ، كانت السفن كلها خاوية ، ولم يظهر ولدي على سطحها .

واذ كانت الرياح تهب في الميناء اصابتني الحمى بالليل .

وفي رعشة الحمى رحت ابحث عن ولدي .

وكلما اوغلت في البحث تجمدت اعضائي .

وعندما مت ، جئت الى هنا في مملكة الظلال ، ورحت اواصل البحث عنه .

ناديت عليه : يا فابر ، فكذلك كان اسمه .

فابر ، يا ولدي فابر ، يا من حملته وربيته ، يا ولدي فابر .

ورحت اجري واجري بين الظلال ، وانا انادي على فابر » .

ان هذا الانتقال السريع من عالم الواقع الى عالم الظلال ، بل هذه الطفرة من الحياة الى الموت ، لم تكن لتتم وبهذه السرعة الخاطفة لولا الحنين الغامر ، حنين الام الى عزيزها الفقيد ، ويتجلى ذلك جلاءا بلوريا في ترديد الام لاسم ابنها خمس مرات في ثلاث جمل كاملات كانه (النوتة) الجنائزية الشجية تردد لحنا مغموسا في دم ساخن طري. والافدح من ذلك والافجع منه ، ان الام لم تذكر اسم ابنها في الحياة الدنيا ، لكنها ذكرته مرارا وتكرارا في عالم الخلود ، وجعلته لازمة من لازمات وجودها في ذلك العالم . وحين يذكرها بواب معسكر ضحايا الحرب قائلا : « ايتها العجوز ! هنا كثيرون اسمهم فابر ... غير انهم نسوا اسماءهم فلم يكن لهم من فائدة الا ان يرصوا في صفوف الجيش . وهم لا يريدون ان يلتقوا بامهاتهم منذ ان تركتهم للحرب الدامية . » حين يذكرها البواب بهذه الحقائق الناصعة والادلة الدامغة على تخاذل الامهات تجيبه الام .. بنفس متقطع وروح متمزقة وبصوت اجش مبهور وفي اصرار وعناد واندفاع قائلة : « فابر ، يا ولدي فابر ، يا من حملته وربيته ، يا ولدي فابر . » هذه هي الذروة من الحيان الرفيع ، من الحزن العميق المتفجر اسى ولوعة . هذه هي شخصية الام متجسدة تجسدا حيا في فلذة كبدها . وبعد ان ينقطع نفسها وينهد حيلها ويتمزق الحجاب عن ساحة الخواء والعدم ، وترى الفناء امرا محتما تعود راجعة الى جادة الواقع الخاوي في صمت مر وسكون فاجع اذ ان رغبتها في لقيا ولدها قد ذهبت ادراج الرياح الهوج في مملكة الظلال . وحينما ينظر قاضي الموتى في عينــي الام (المحلقة) يرد على لوكولوس ردا مفحما ، لا استئناف فيه ولا تمييز (٣) قائلا :

«قاضي الموتى : المحكمة ترى ان ام الشهيد تعرف الحرب . »

وهكذا يسدل الستار على هذا المشهد بانتصار الحق على الباطل والامومة على الحرب والخراب ولو في مملكة الظلال . اما غريزة الامومة فتمثلها جروشا بطلة « دائرة الطباشير القوقازية » خير تمثيل ، لانها ببساطتها وسذاجتها وانسانيتها وواقعيتها تحملنا حملا على مشاركتها وجدانيا والتعاطف معها بصورة ايجابية ، ومتابعة جولتها البطولية مع طفل ليس ابنها بل ابن سيدتها التي فرت وتركته بعد ان نستــه لالتهائها في استخلاص فساتينها وفرائها النبيذية والبنفسجيـــة واللازوردية ، والفرار بها من غضبة الثوار الذين اخذوا يقتربون من قصر زوجها الحاكم . وهذا ما اثار تعليق احدى الوصيفات : « لقد تركته هنا ؟ ابنها ميخائيل الذي كانت تخشى عليه دائما من تيارات الهـواء ..!» (٤) .

وليس من ريب أن بريخت ، تمكن ، وهو الاستاذ البارع ، من ان يصنع ازاء هذه الفريزة الفائرة الرائعة نداء الطفولة البريئة التي تسمو بهذه الفريزة الانسانية الى اعلى عليين ، فتكون بمثابة قمر من الحنان تحيط به هالة من البراءة الشفافة ، وهل احلى واروع واجمل من هذه البراءة الناطقة بالمعاني الساحرة والدلالات السامقة الذرى ، ومعالم الالطاف في مساربها العميقة الاغوار من هذا الذي نسمــع . فلنسمع الى المغني وهو يومىء ويشير ويروي الحكاية :

«المغني : ولما كانت واقفة هناك بين البابين ، سمعت او خيل اليها انها سمعت نداء بصوت خفيض . ناداها الطفل ، لا عن وعي ، بــل بذكاء ، او هكذا بدا لها . قال لها : « ايتها المراة ، ساعديني .»»

وقال أيضا وهو لا يهذي ، بل عن ذكاء : «اعلمي يا امراة أن من يتجاهل نداء استغاثة ويمضي باذن صماء ، فانه لن يسمع ابدا همس العاشق وهو يدعوه ولا صوت القطا في الصباح الباكــر ، ولا زفـرة السعادة من الكرامين المنهكين حينما يدق ناقوس الاصيل .»

وبعد هذا النداء الاقدس على عمل الخير وانتشال الطفولة الحلوة الرائقة البراءة ، وبعد ان تقف جروشا حائرة بين ان تتسلم الطفــل وتفر به وبين ان تفر بجلدها وهي الخفيفة الحمل ، المــداءة التــي تسابق الغزلان في جريها وفي لطفها وحسن منظرها وجمال قسماتهـا ورشاقة قوامها . بعد هذا كله يحدثنا المغني بصوت جد مرتفع :

« المغني : ان الاغراء على الخير رهيب .. بقيت طويلا جالســة بالقرب من الطفل في المساء وطوال الليل وعند الفجر ... وحينما اقبل الصبح كان الاغراء اشد قوة .

هنالك نهضت وانحنت وبزفرة أخذت الطفل ومضت به ..

لقد حملته كانه غنيمة ، واختفت به كانها سارقة . »

واذن لقد قر قرارها واستقر رأيها على المضي بالطفل الى جبال الشمال لكن «كيف السبيل الى الفرار وخلفها تعدو الكلاب يتعقبون وينصبون لها الشراك ؟ » اي نعم ، كيف السبيل والطريــق طويلة موحشة مرعبة والكلاب على هذه الكثرة الكاثرة وبأيديهم الشــراك ينصبونها هنا وهناك . وفي هذه الطريق الطويلة تصادف جروشا احد الفلاحين العجائز فتطلب منه لبنا لابنها لقاء فلوس ، وبعد اخذ ورد ومساومة فلاحية معروفة ببخلها وشحها تحصل جروشا على الحليب اللازم بمبلغ باهض وهذا ما جعلها تحدث طفلها بقولها :

« جروشا : (وهي تعطي الطفل اللبن) هذه لذة تكلف كثيرا . اشرب يا ميخائيل ، لا بد لي من العمل ثلاثة ايام لكي اكسب هــذا المبلغ . ان الناس هنا يظنون اننا كسبنا نقودنا من الهواء . ميخائيل ، ميخائيل ، حيما اخذتك ، اخذت عبئا ثقيلا .» وهذا العبء يــزداد فداحة كلما اوغلت جروشا في الهرب حتى (تقل عليها الهروب ، وبدا الطفل المسكين ثقيلا) وبخاصة اذا عرفنا ان جروشا لم تتذوق (طعم النوم) الى حد (ان التصادم المرح لجرادل اللبن في المزرعـة التـي يتصاعد منها الدخان كان يرن في اذن الهارب رنين التهديد) . هكــذا كانت اول ليلة ، رعب يخنق الانفاس ، وقلق متواصل يمزق الاعصاب ، ووساوس شيطانية تتراكض من هذه الناحية الى تلك تشير وتؤمــي وتقهقه ساخرة مزمجرة مهددة وجروشا تذرع الطريق ببطء ، وتؤدة وتمضي في سبيلها غير آبهة او مكترثة الى ان تجد في احدى القـرى بابا مفتوحة وفلاحة يبدو انها أم بجوارها فتتضرع اليها متوسلــة ان تعينها وتخلصها من عبئها الذي ناءت به وتبرمت منه ، وبينما هي في محاورة مع الفلاحة ، وقد وضعت الولد في سلة وراء الباب ، اذ اقبل الجند وعلى رأسهم عريف ، ما اسرع ان تعرف بالولد من ثيابه الفاخرة، ففرح بصيده الدسم وجائزته الثمينة واخذ يغازل جروشا غزلا سمجا ، الا ان جروشا سرعان ما باغتته بضربة قوية على أم راسه واستهلت الطفل من سلته وفرت هاربة به تسابق الريح في سرعتها ، وبعد مسيرة اكثر من عشرين يوما وصلت الى العبارة المتهرئة التي تحاذي سفح جبل ينجا ـ تاو المغطى بالثلج حيث تبنت جروشا فاشنادزي الطفل وقالت:

« ما دام لا يريد احد ان ياخذك فينبغي علي ان اخذك ، وما دام لا حيلة لك في ذلك .. فينبغي عليك ان تتحملني . لقد جررتك طويلا معي ، وقدماي اصابهما الحفا ، ولان اللبن كان غالي الثمــن ، اصبحــت عزيــزا عنــدي » .

كان اناس كثيرون متجمعين في الجانب الغربي من عبارة الثلوج وكانت الهوة الفاصلة بين الشاطئين عميقة عمقا مخيفا والحبل مهترئا لا يكاد يحمل نفسه والخشب منخورا لعب به السوس ما شاء له اللعب، لكن جروشا اصرت على العبور وقالت : « لكن يجب علي ان اعبر أنا والطفل الى الجانب الاخر لأزور أخي » وبعد ان افهمت هؤلاء الناس انها مطاردة ، حاول احد الرجال الواقفين اقناعها بقوله :

« الرجل الاول : لن تستطيعي ... غامري بحياتك ان شئت ، لكن لا تغامري بحياة الطفل ... » .

وزاد الرجل الثاني قائلا : « ثم انها بالطفل ستكون أثقل . »

ثم جاءت التاجرة تؤيد الرجلين وتقول : « ربما كان من الضروري ان تعبر . اعطيني الطفل وأنا اخبئه واعبري وحدك » .

وهنا قالت جروشا : « اما هذا ، فلا . لا واحد منا بغير الاخر.» واردفت تناجي طفلها قائلة :

« ما اعمق الهاوية يا بني ، وما أشد تحطم العبارة ، لكننا لا نختار طريقنا يا بني . لا بد لك ان تسير في الطريق الذي وجدته لك ، وان تاكل الخبز الذي هيأته لك .»

واذن لا خيار ، هذه هذه العبارة وها هما العابران اللذان كتبا عليهما ان يفعلا ما هما فاعلان . ان غريزة الامومة اقوى من المكاره والمخاطر ، والهينات من الامور امور يسيرات ، اذ لا تتجلى جلائل الاعمال الا في الخطوب المدلهمات . وبهذه العزيمة الفولاذية استطاعت جروشا ان تعبر بحملها الثقيل الخفيف ، واستطاعت ان تخلف وراءها مطارديها وان تهزأ بهم من الشاطىء الذي وطأته قدماها الحافيتان .غير ان الريح الشديدة كانت تنوح وتولول وتصرخ في عواء متصل .وهنا تلاحمت اوصال قوتها واشتدت عزيمتها وتعززت شكيمتها حتى لم تستطع الا ان تخاطب ابنها مشجعة حانية حادبة :

« جروشا : ... يجب الا تخاف من الريح يا ميخائيل ، انها هي الاخرى لا تفعل اكثر من ان تدفع السحاب ، وتقاسي هي البرد . انها مجرد كلب مسكين .»

الريح العاصفة الهدارة ، القوة الطبيعية المروعة التي تقتلع اقوى الاشجار ليست سوى (مجرد كلب مسكين) أرأيت اقوى من هذه الكلمات الثلاثة في التعبير عن وهن الطبيعة بجبروتها ، وعن عظمة الانسان ، على ضعفه وقلة حيلته ، ولا سيما اذا كان هذا الانسان امرأة امضها التعب واقلقها الرعب وافزعتها الهواجس ؟ لكن هذا هو الواقع ، هذه هي العظمة ، عظمة غريزة الامومة الجبارة التي تفل الحديد وتذيب الجليد وتصفع الريح ، وتمضي قدما في اداء رسالتها المقدسة ، وهذا ما يحملها على معاودة مناجاة الطفل قائلة : « جروشا : والثلج يا ميخائيل ليس اسوأ شيء ، كل ما يفعله هو ان يغطي شجيرات الصنوبر حتى لا يقتلها الشتاء » . ثم تتذكر اصل الطفل واصلها فتغني له على رسلها :

« ابوك لص . وامك عاهرة . وامامك سينحني أشرف الناس . ان ولد النمر يعلف الامهار . وولد الحية (الصل) يحمل اللبن الى الامهات .»

وبهذه الاغنية الساخرة المرة ، تضع جروشا النقاط على الحروف، وتعري المجتمع تعرية فاضحة ، اذ تضع براءة الطفولة ازاء رياء المجتمع وعهارة التحكم وسفالة امتصاص دماء الناس وسرقة اتعابهم وافسادهم والاستعلاء عليهم والاخذ بنواصي اشرافهم ورفع شأن اراذلم . اما الاطفال فهم ابرياء حتى ولد النمر وحتى الصل ، انهما بريئان من الشر الا اذا تعلماه من والديما ، وعندئذ ينقلب ولد النمر نمرا ، وحشا قتالا وينقلب الصل أفعوانا ينث سما مبيدا .

وبعد مسيرة سبعة ايام اخر ، وسط الثلوج والزوابع الثلجية تصل جروشا الى بيت أخيها وعلى كتفها حملها الذي ناءت بكلكله على خفته ، وبعد مراسيم الاستقبال المعروفة بايام دبت الضغينة الى قلب زوج اخيها فأخذت تقذفها بسيل من الكلم الجارح حاطة من قدرها ، مشيرة الى الطفل باصبع الاتهام . فنفرت جروشا مما سمعت ورأت ، لكنها كظمت غيظها وتمالكت نفسها خشية ان يصيب الطفل سوء ، وسرعان ما لجأت الى مناجاة طفلها كي تستلهم منه الصبر على المكروه ، فقالت : « يا ميخائيل ! يجب ان نكون ماكرين . لو تصاغرنا وحدنا مثل الخنافس ، فان زوجة الاخ ستنسى اننا في بيتها . وحينئذ نستطيع ان نبقى حتى تذوب الثلوج . ولا تبك بسبب البرد . حينما يكون المرء فقيرا ، وفوق ذلك يشعر بالبرد ، فهذا يثير الكراهية .»

ثم يرتب أخوها حيلة اذ يعقد قرانها على فلاح (يحتضر) وهنا تلعب ام الفلاح دور السمسار لانها تقبض مبلغا كبيرا من المال من اخيها، ولكن الفلاح (يوسوب) بدلا من ان يدرج الى الموت يعود الى الحياة ، واذا به زوج جروشا الشرعي ، على حين كان حبيبها (سيمون) يعاني الامرين بين فكي طاحونة الحرب .

وفجأة تضع الحرب اوزارها ويعود الحبيب سالما غانما ليجد حبيبته متزوجة وهنا يتبرع (المغني) بأن ينوب عن جروشا في تبرير مسلكها فيقول وكأنما هي القائلة :

« حينما كنت تقاتل في المعركة .. في المعركة الدامية ، المعركة الوحشية ، وجدت طفلا مسكينا لا معين له ، ولم يستطع قلبي ان يتخلى عنه . وكان علي ان اهتم بمن كان سيضيع لولاي . وكان علي ان اطأطىء راسي لألم الفتات من الارض ، وكان علي ان امزق نفسي من اجل من ليس لي ، من اجل غريب . لا بد من معين ، لان الشجرة في حاجة الى السقي ، والعجل الصغير يضل اذا نام عنه الراعي.. »

وفي الختام تنتهي الحرب والثورة معا وتعود زوج الحاكم القتيل ابشقيلي ، ام ميخائيل ، فتبحث عنه بواسطة الجنود الذين يحاولون استرداد الطفل حيا الان بعد ان كانوا يريدون القضاء عليه والتخلص منه ايام الثورة ، وهكذا تنقلب الموازين ويستعاد الطفل من جروشا ، الا انها تتشبث به بزعم تربيته والاعتناء به واحتضانه والنأي به من كل مكروه ، في حين ان امه نسيته لاهتمامها بملابسها وفرائها ، وتركته وحيدا فريدا ...

ولما كان ازدك الكاتب العمومي قد أوى الدوق الكبير وحماه من خصومه واعدائه ، فان الدوق لم ينس له هذا الفضل فعينه قاضيا ، كما كان شأنه ايام الثورة ، ولما كان ازدك واحدا من افراد الشعب ، فقد نظر في توسلات جروشا بعين الرعاية وعين يوما للنظر في دعوى زوج الحاكم باحقيتها في ابنها ، فكان ذلك اليوم المشهود وها نحن نشهد موجزا لهذه المحاكمة الفريدة : (قاعة المحكمة في مدينة نوخا من أعمال بلاد القفقاس) « أزدك : هاأنذا اعلن افتتاح الجلسة وابتداء المرافعة واطلب منكم منتهى الصراحة (مخاطبا جروشا) : خصوصا منك أنت .

« المحامي الاول : ... ان روابط الدم هي أقوى الروابط . أم وابن ، هل هناك رابطة اوثق ؟ هل يمكن انتزاع ولد من امه ؟.. ايتها المحكمة الموقرة ! ان النمرة المتوحشة نفسها شوهدت ، لما أن انتزعت منها اولادها تهيم على وجهها ولا تهدأ بين الجبال ، وقد اصابها الهزال حتى صارت شبحا من الاشباح ، نعم ، ان الطبيعة نفسا ...

ازدك : (مقاطعا اياه ومخاطبا جروشا) : بم تردين على هذه العبارات ..؟

---

(١) محاكمة لوكوللوس ، ترجمة الدكتور عبد الغفار مكاوي . (٢) ساحة المدينة الرومانية . (٣) في المصطلح العراقي محكمة التمييز هي اعلى سلطة قضائية في البلد وهي تشبه محكمة النقض والابرام المصرية. (٤) اعتمدنا في ايراد الشواهد على ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي. (٥) وردت في الاصل كلمة شد ، ي.ع. ثروة . (٦) اجريت هنا تغييرا طفيفا ، ي.ع.ثروة .

جروشا : انه ابني .

ازدك : هذا كل ما في الامر ؟ آمل ان تقدري على اثبات ذلك . وعلى كل ... لماذا تعتقدين انه ينبغي على ان احكم لك بالطفل ؟

جروشا : لقد ربيته احسن تربية قدرت عليها ، ووجدت له دائما طعاما ياكله .. وفي معظم الاحيان كان يجد سقفا يستظل تحته ، ومن اجله عانيت كل انواع المتاعب والمشاق وانفقت مختلف الوان الانفاق.

المحامي الاول : يا صاحب السعادة ! انه لامر بالغ الدلالة ان هذه السيدة نفسها لم تشر الى اية رابطة دموية بينها وبين هذا الطفل .

ازدك : المحكمة تسجل ذلك .

زوجة الحاكم : (بصوت ضعيف) سيدي ! ان مصيرا قاسيا يفطرني ان ارجو منك ان تعيد الي طفلي العزيز .ليس في وسعي انا ان اصف لك الالام النفسية التي تعانيها ام حرمت من ابنها ، وما تشعر بـه مـن جزع ...

المحامي الثاني : (وهو يندفع) ان ما لقيته هذه السيدة لامر لم يسمع بمثله من قبل .. لقد جمدوا ريع املاكها ، وقيل لها بكل برود ان هذا الريع مرتبط بشخص الوارث ، وبدون الطفل لن تستطيع ان تفعل شيئا ، ولا تستطيع ان تدفع اتعاب محاميها !

المحامي الاول : ... (مخاطبا ازدك) : طبعا ، صحيح ان نتيجة القضية ستقرر «ايفا» ما اذا كانت موكلتنا ستحصل على حق التصرف في تركة ابشقيلي الضخمة جدا ..

ازدك : لحظة ! ان المحكمة تدرك في الاشارة الى التركة شاهـدا على مشاعـر انسانيـة .

الطباخة : (تشهد لصالح جروشا وتعلق على قول المحامي الثاني الذي يتهم جروشا بانها كانت تحوم حول الطفل حينما هربـت ام ميخائيل) : ان السيدة (زوجة الحاكم) لم تكن تفكر ساعتئذ الا فـي الفساتين التي ستهرب بها !..

ازدك : والطفل ، انت تؤكدين انه ولد من الطهارة ... ! انـي اسالك سؤالا : أي ولد هذا ؟ هل هو ابن زنا فقير الابوين ؟ او ولد كما يجب ، ابن اسرة غنية ؟

جروشا : (بشراسة) : ولد كاي ولد آخر .

ازدك : اقصد : هل كشف مبكرا عن علامات ترف ؟

جروشا : لقد كشف عن انف في وسط الوجه . »

وبعد رفع الجلسة لاجراء محاكمة اخرى في دعوى طلاق يوسوب تعود المحكمة الى الانعقاد ويبدأ الاخذ والرد بين القاضي وجروشا حتى يتحول الامر بهما الى سيل من الشتائم الرخيصة . ثم ما يلبث ازدك ان يعترف بتفهمه لمشاعرها فيقول وقد اخذ منه التعب ماخذه :

« ازدك : ايتها المرأة ، اعتقد انني افهمك .

جروشا : انني لن اتخلى عنه ابدا . انا التي ربيته وهو يعرفني.

(شوفا يدخل بالطفل) .

زوجة الحاكم : هكذا في ثياب بالية ممزقة !

جروشا : هذا غير صحيح . انهم لم يتركوا لي فسحة من الوقت لالباسه قميصه الجميل .

زوجة الحاكم : كان يقيم في زريبة خنازير .

جروشا : (غاضبة) : انا لست خنزيرة . لكنني اعرف خنزيرات. اين تركت ابنك ؟ ..

ازدك : ايتها الشاكية ، وانت ايتها المتهمة : لقد استمعـت المحكمة الى اقوالكما ولم تستطع ان تتبين باقتناع من هي ام هذا الطفل الحقيقية . وعلي بوصفي قاضيا ان اقرر من الام . سأنظم لذلـك امتحانا . يا شوفا خذ قطعة من الطباشير ، وارسم دائـرة على الارض (شوفا يرسم الدائرة ..) . ضع الطفل داخل الدائرة . (يضع شوفا الطفل ميخائيل في الدائرة . الطفل يضحك لجروشا) ايتها الشاكية وانت ايتها المتهمة قفا على جانبي الدائرة (زوجة الحاكم وجروشا تقفان..) كل واحدة منكما تمسك بالطفل من يده التي في ناحيتها . والام الحقيقية منكما هي التي (ستقوى على سحب (٥) الطفل الـى خارج الدائرة) .

المحامي الثاني : (محتدا) ايتها المحكمة الموقرة ! اني اعتـرض على هذا الاجراء الذي يجعل مصير تركة ابشقيلي متوقفا على صراع مشكوك فيه ، وفضلا عن ذلك ، فان موكلتي ليست لها من القوة مـا لهذه المرأة التي اعتادت القيام بالاعمال البدنية .

ازدك : يخيل الي انها معلوفة علفا جيدا . هيا (اسحبا) .

(زوجة الحاكم تسحب الطفل الى خارج الدائرة . اما .. جروشا فقد تركته وبقيت مكانها مسمرة) (٦) .

المحامي الاول (وهو يهنىء زوجة الحاكم) : ماذا قلت ؟ رابطةالدم

أزدك : (مخاطبا جروشا) : ماذا جرى لك ؟ انك لم تسحبي .

جروشا : لم امسك به جيدا (تندفع نحو ازدك) يا صاحـب السعادة ! اني اسحب ما قلته ضدك . وارجو منك العفو . آه لو ترك لي حتى يستطيع ان يتهجى كل الكلمات !

ازدك : لا تحاولي التاثير في المحكمة ، فانا اراهن انك لا تعرفين اكثر من عشرين كلمة. حسنا ! ساعيد الامتحان ، للفصل النهائي فـي القضيـة . اسحبا .

(السيدتان تاخذان موقفهما . وجروشا تترك الطفل مرة اخرى).

جروشا : (يائسة) انا التي ربيته ! هل انتزع اطرافـــه ؟ لا استطيـــع .

أزدك : (ناهضا) : الان تبين للمحكمة من هي أمه الحقيقيـة (مخاطبا جروشا) خذي ابنك واخرجي به من هنا . وانصحك نصيحة: لا تمكثي به في هذه المدينة . (مخاطبا زوجة الحاكم) وانت اذهبي قبل ان احكم عليك بتهمة الادعاء الكاذب . واعمال التركة تعطى للمدينـة ويعمل بها حديقة عامة للاطفال .»

وبعد ، لقد اطلت في عرض المشهد ، ومع اني اوجزته ايجـازا شديدا ، فقد كان من الهيمنة بحيث شدني اليه شدا عنيفا لذيذا ، لان فيه ومضات من الروح الانسانية النبيلة ومشارق انوار من الدوافع الخيرة والايحاءات النيرة وذرى سامقة من منائر تشع بالرفيق من المشاعر والاحاسيس والرفيع من المبادىء والمثل والعفيف مـن المقاصد والمعاني ؟ وكل ذلك في لغة بسيطة بساطة الحق ، لغة تتفجر صدقا واخلاصا وايمانا بالكلمة الطيبة ، بالشجرة المباركة التي اصلها ثابت وفرعها في السماء ، الشجرة التي سقاها بريخت بعصارة حياتـــه وحماها من كل الغربان الادمية وحرسها من غوائل الزمن وعواديه حتى اواخر حياته الحافلة ... ولم يفارق هذه الدنيا الا بعد ان اوكـل بحراستها الى زوجه الامينة ...

بغداد يوسف عبدالمسيح ثروة

دمشق في قلب كانون ، جو ثقيل ثقل الاحلام الميتة .. مطر خفيف ، مصباح يجعل الظلام ضبابا .

فتاة تقف على شرفة بثياب نوم ناصعة ، تتقدم حتى يضغط وسطها على الحافة ! شعرها الكستنائي المصفف حال أسود وتلبد .

الحارس يقف حائرا مشدوها ، ثم يتابع سيره ضاربا الارض بعصاه، متلفعا بمعطفه وبشال .

شاب يبرز في الشارع الطويل، تقطر منه المياه ، يسير الهوينا بعبوس وتصميم ، قسماته رقيقة ، وعلى شفتيه تسيل روح شاعرة .

جال شوارع المدينة وازقتها ، وتوقف في معارجها وساحاتها ، اضواء السيارات في عينيه تحد والناس في الحانات قيء .

جبهته سمراء مقطبة ، كل شخص اداة ، كل كائن ، فالسخرية تجعل الحق تفاهة ! وهذا الجمود، جموده، حق وتفاهة ... سبب الكائنات اياه اداة يمسك بها المعوز . علام يستقر؟ اين التكئة ؟ ما هو الصواب ،والفكرة الصالحة ؟ سبع بحرات ويستحم عصفور الدوري ... جلد براق وعبير وزحام ، جمرتا لهيب مدمر ، اشواق ونتن ، ضعف وهزال ، سير الى العدم ، اشواق !؟ التهاب اعماق ، بخور لوثن اعمى اصم .. من يقول ها انذا ، منفتحا كعين الشمس ... سخرية ، تقهر ، قوة الحياة في الطرف الاخر ، ضائعة في الشعر المقصوص ، في الارادة الوهمية والحب الاحمق .

اجفل ، العيون الاربع تتصل بسلك راعش مظلم .. لكم يسيء هذا الحارس الى شعوره ! هو ايضا يسبح بماء المطر ! اداة ! شجرة يبست فحملت مصباحا ... نور جامد ، اليه ، اليه ، وقفة في النور جمود مضاء !

الشرفة ترتعد ! يدها تلوح ... ينظر ، ويرجو الا تكون راته ينظر . بعد اليوم الثالث ضعفت !

سكينة ، ماذا تنتظر ؟ اما درت بخروج القطار عن خطه ، وبموت البهلوان مشنوقا بحبله !؟

اغنيات النفاق غاب صداها في كهف الموت ، وابتسامة الاغراء اضحت زهرة دم في جمجمة تعس. لا . لا سبيل بعد لوقفة رجوع ...

خليل ، خليل ، تهمس الفتاة بالحاح مرتعد .

ينتصب في خضم اعصار ،يشتعل، يعرق ، ينفصل عن ذاته ويلتئم ، رغبة وتجلد ، في التجلد رغبة ، وفي الرغبة عدم ارتواء ... قسر ، قسر ، قسر ، في الارتواء قسر وغش وتملق ... ما الذي يرويك !؟ اعماقك المتشابكة ما الذي يحلها ؟

ظلال

بقلم فيليب عبدالحق

أنور في شجرة يابسة ؟ ايد بضة وشفة ؟ ام عين لاهثة بوميض شهوة!؟ خداع . خداع .

خليل ، خليل !.

ودمعة تسخن الجو ، تحيل الشارع الى دفء ... خيط من روح ازلي ، من الشرفة ، الى العالم، الى قلبه . احنان ام تجديد نقمة ؟

خليل . خليل !..

ويود لو يصيح – حبيبتي ... ملء الليل والمطر والاعصار .

لكنه ينكفىء ، يسرع ، يجلس في غرفته ، سنديانة وحيدة على ذروة فرتها الريح ... يفتح كتاب قانون ،

قصة

قد تم الملتقى مع اداة اهملت زمنا ، الغبطة ، الغبطة ! لكن ، لم يدع ستائر نوافذه مجمعة !؟ الا يحجب الشرفة بها ومن على الشرفة !؟ سيدير ظهره ... الحقوق الرومانية، بابينيانوس ، غيوس ... عباقرة القانون .. بناؤون حضاريون ، صانعو صناديق المصائر الانسانية .

خليل .. خليل ! نصل خنجر دقيق ... اتراها تبكي ؟ ومن هي التي تبكي !؟ واحدة كانت قديما ، خلقها خيال فنان مات ، واحدة كانت قديما جعلت الارض سماء ! لكنها الان حجر جامد في جدار .. ولكن اهي حقا تبكي ؟.

يلصق خده الى الكتاب وعيناه في قبضة الباب ، يرتعد ، ثيابه قطعة جليد .

– اريد التهامك .

تضحك ... يضحك ... تخف حدته ثم ، تحتدم .

– ارغب في تمزيق ثيابك .

تنظر اليه ، تتملاه . تغوص عيناها في عينيه ، عينا ام زاجرة ، ينكمش ، يتقيد ، يسعل ، يفرك جبهته .

– تزوجيني .

– ليس الان طبعا .

– بل الان .

– سادخل الجامعة ، سأدرس الصيدلة ، اما قلت لك هذا !؟

– لكنك رسبت بالثانوية .

– وانت رسبت بالحقوق .

– بسببك .

– طبعا ، ورسوبي كان بسببك .

– لكنني سأسعدك .

– كيف !؟

– بكل كياني .

– ليس هذا طريق الحياة .

– ماذا اذن !؟

– كن واقعيا .

– انت تذبحينني .

– وانت تتعبني .

– هل احببتني ؟

تصمت . عيناها مغاور سرية .

الربيع والهزار الغائب

الى روح صديقي الشاعر عبد القادر رشيد الناصري

لقد عاد الربيع على الروابي
ونمقها ... ولا عاد الهزار

فأين المسكرات من الاغاني
اذا ما طاف بالصحب العقار

هزار الروض ما لك غبت عنا
وشيكا والكؤوس لها ازدهار

فبعدك لا البنفسج ماج طيبا
على تلك البطاح ولا العرار !

بكى النوار من جزع وضجت
ربى الوادي وناح الجلنار

فشاهدنا المروج بلا اخضرار
عراها في منابتها اصفرار !

تسائلت الحسان لم الشوادي
حيارى والمروج بها احتضار

فقيل ابن الربيع ناى وشيكا
وراح مع الذين مضوا وساروا

وما ابقى سوى ديوان شعر
ثمين دون قيمته النضار

اخا الالهام لست سوى نبيغ
له ادب يتيه به الفخار

عليك اليوم تنتحب القوافي
جهارا والخيال المستطار

مع الاحزان خلفت الندامى
بهم عن كل ما يصبي ازورار

فما وشي الربيع لهم بساطا
ولا لعبت لهم في الروض نار

ولا تسل الطبيعة فهي ثكلى
يؤرقها حنين وادكار

وليس الروض في جزع فاني
سمعت ورا الدجى تبكي البحار

ففي قرب الخليج درجت طفلا
كلؤلؤة يجود بها المحار

درجت وما عرفت سوى الاماني
يقربها لمطلبك العقار

وليست غير آل في فلاة
وهل يدني السراب لنا القفار

لقد غاب الهزار عن الشوادي
وذاك الروض جلله الغبار

كم انتظر الرفاق له مجيئا
ولكن طال ذاك الانتظار

البحرين — احمد محمد الخليفة

ـ انا واثق ... ما احببتني يوما.

ـ بل ، قل انت ، اي حب تحبني انت ؟

ـ انا !؟

ـ نعم . انت . الحياة تتعبك ، تريدني اداة نجاة .

ـ انا خائن اذن !؟

ـ بل تأمل في قطع المسافة بأمان الى الشاطىء .

ـ أوتؤمنين انت بالشاطىء!؟

ـ هراء .

ـ والحب ؟

ـ ...

ـ والزواج ؟

ـ اسطورة قديمة مملة ...

ـ لكنك تمنينني ... هكذا قلت .

ـ ... متى !؟

ـ هذا الصباح .

ـ ... خليل !..

ـ حسبك .

ـ اسمعني .

ـ حسبك .

ـ لكن قلبي ...

ـ احتفظي به .

ـ سيقتلني .

ـ هذا شأنك .

خده يلهب الكتاب ، عيونه مغمضة ، فمه مطبق باحكام ، وعلى الشرفة فتاة تقف ببؤس وثبات ... الحارس يصفر ، يتمادى الصدى ، وكل شيء يعود كما كان ، ملفعا بالصقيع ، مداسا بأقدام الزمان ...

طرابلس — فيليب عبدالحق



ادباء من الشرق والغرب

تأليف عيسى الناعوري – ١٦٧ صفحة – منشورات عويدات ببيروت – مطابع منشورات عويدات ببيروت

مؤلف هذا الكتاب الاديب الاردني المعروف الاستاذ عيسى الناعوري الذي يمتاز بنشاطه الجم وغزارة انتاجه ، اذ وضع حتى الان بضعة عشر كتابا مطبوعا ومجموعة صالحة من الكتب التي لم يتح لها ان تنشر بعد . وهو لا يختص بنوع واحد من انواع الادب ، بل يسهم بقلمه في موضوعات شتى تتراوح من الرواية والقصة القصيرة الى الشعر والبحث الادبي والنقد والترجمة . وهو ايضا من المختصين في الادب العربي المهجري ، وقد وضع في ذلك الادب كتابا يعتبر بحق في طليعة المراجع التي تعرف بذلك الادب وكبار من نبغوا فيه في الامريكتين . ويمكن القول ان الناعوري من المثقفين المطلين على الاداب الغربية في مصادرها الاصلية ، خاصة وانه يجيد عدة لغات من بينها الايطالية والفرنسية والانجليزيـة .

ويرى مؤلف الكتاب في المقدمة التي استهل بها كتابه ان اتصال العرب الحقيقي بالاداب الغربية لم يتخذ وجهته البارزة الا في هـذا القرن العشرين ، بحيث صارت الاداب الغربية تؤثر في ادبنا تأثيـرا مباشرا . وقد نتج عن ذلك ان أدبنا ازداد غنى واخذ يقترب من العالمية بخطى واسعة سريعة . وقد أخذ الاديب العربي نتيجة لذلك الاتصال، يتفاعل تفاعلاعميقا واسعا بآداب الغرب ويتأثر بمذاهبها الفنيةوالجمالية والاجتماعية والانسانية . ونتج عن هذا الاتصال الثقافي ان ازدادت القرابة الفكرية بين الغرب والشرق العربي واتسعت وتعمقت بالرغم عن تباين وجهات النظر السياسية . وهو يرى ايضا ان ابرز ما تأثر به العرب من الاداب الغربية كان في النواحي الانسانية التي ترتفع فوق النعرات القومية والمذهبية ، ويرى كذلك ان الادب العربي المعاصر أخذ في الحقبة الاخيرة يشارك في الاداب العالمية مشاركة الانداد ، وان الاديب العربي اليوم لم يعد معزولا عن العالم ولا منفصلا عـن الفكـر الانسانـي .

وهذا الكتاب يقصد به مؤلفه ان يسجل جانبا من جوانب التواصل الفكري بين العرب والغربيين لان في ذلك التسجيل ما يدفع الـى التطوير والتعميق والى فتح السبل امام الفكر العربي المعاصر ليحتل مكانته في الفكر العالمي .

في هذا الكتاب يعرض لنا المؤلف عددا من وجوه التشابه بيـن بعض الادباء العرب من جهة وبين بعض الادباء الغربيين من جهة اخرى. وهو يعرفنا باتجاهات اولئك الادباء او الشعراء الذين يتحدث عنهم من خلال عرضه لوجوه المقارنة بينهم . فالكتاب على هذا يحمل في طياته فائدة التعريف الى جانب فائدة المقارنة والموازنة .

أول ما يختار لنا المقارنة بين الشاعر التونسي « ابو القاسم الشابي» من جهة وبين الشاعرين الانجليزيين وليم ورد سورث وجون كيتس من جهة اخرى . فالشابي شاعر رومانسي في عبارتـه وفـي خيالاته وفي اندماج روحه بالطبيعة وفي عاطفيته وحبه وألمه ، وقـد تأثر الشابي بالرومانسية الغربية عن طريق الشعراء المهجريين لانه لم يكن يعرف لغة اجنبية. ويمتاز الشابي بانه شاعر الطبيعة والريـف والحب وحس الطفولة قبل كل شيء آخر ، ويعتبره المؤلف واحـدا مـن أعظم شعـراء الرومنسية في هذا القرن ومن أرشقهم عبارة وأعذبهم خيالا وأرقهم عاطفة .

وهو يجد وجوه التشابه بين الشابـي وورد سورث في غرامهما بالطبيعة بكل الوانها واصواتها وصورها ، بمروجها وغاباتهـــا وجبالهـا . ولكن الفرق بين الشاعرين يتجلـى في كآبة الشابـي ومرارة شعوره وبيـن استبشـار ورد سورث ، وسبـب ذلـك ان الشابي أبتلي بالمرض وهو ما يزال في ريعان الشباب بينما كان ورد سورث يستمتع بالعافية وبلغ من عمره الثمانين . ويستشهد المؤلف بامثلة عديدة من شعر الشاعرين ، فهذا الشابي يقول :

أقبل الصبح يغني للحياة الناعسة
والربى تحلم في ظل الغصون المائسة
والصبى ترقص أوراق الزهور اليابسة
وتهادى النور في تلك الفجاج الدامسة

بينما نجد ورد سورث يقول في قصيدته « الصبي الراعي الكسول»:

الوادي يصدح بالحـان الفرح والحبور
وتشدو الاصداء بين التلال
وعلى طول ضفة النهر الملأى بالحجارة
تشدو الرمال المرحة اغنية جذلى
ومئات الحملان منتشرة على الصخور
وذلك الراعيان أكثر ابتهاجا من الجميع

اما بالنسبة لجون كيتس فالتشابه بينه وبين الشابي لا يقتصر على الرومانسية بل يشمل بعض مظاهر الحياة ، اذ مات كلاهما فـي عمر ازهار الربيع واحتملا الكثير من مرارة الحياة ونبغا في مطلـع الشباب . والمشابه بينهما تشمل استيحاء الطبيعة وسيطرة الكآبـة ثم الموسيقى وصفاء الرؤية الباطنية .

ويجد المؤلف وجها للمقارنة بين الشاعر جبران خليل جبران فـي كتابه «النبي» وبين الفيلسوف الالماني نيتشه في كتابه « هكذا تكلـم زرادشت » . فقد اختار كلاهما ان يكون معلما للبشرية عـن طريـق وسيط ينطق بالحكمة ويهيء الانسانية لهدف بعيد هو الانســان السوبرمان بالنسبة لنيتشه وهو الدعوة الى المحبة بالنسبة لجبران. ويتخذ المؤلف من نجاح كتاب جبران دليلا على ان الناس عموما يفضلون دعوة المحبة والتسامي على دعوة الحرب والقسوة ، فقد شهد كتـاب جبران طبعات عديدة وترجم الى كثير من اللغات الحية بينما لم يظفر كتاب نيتشه بشيء من ذلك . ثم يخلص الى القول ان المتصـوف الشرقي جبران والفيلسوف الغربي نيتشه التقيا في مظاهر عملهمـا الفكري ولكنهما اختلفا في جوهر العمل الفكري نفسه : هذا حاول تحقيق انسانية الانسان وذاك أراد ان يحطم الانسان القديم ليستبدله بالسوبرمـــان .

ويعقد المؤلف فصلا للمقارنة بين احسان عبد القدوس والبرتـو مورافيا في الادب الجنسي المكشوف الذي اشتهرا به . وهو يرى ان الجنس في ادب هذين الاديبين اكثر من الماء والهواء بل هو الحيـاة نفسها . وبينما يجد عبد القدوس نفسه مضطرا الى تصوير سلـوك بطلات قصصه كخروج على البيئة وتمرد على التقاليد بدافع من علمه بنظرة السخط التي يلقيها المجتمع الشرقي على الساقطات ، فـان مورافيا لا يهتم بنظرة المجتمع ، ولا يرى في سلوك النساء في قصصه أي تأثير على المجتمع لذلك يصورهن تصويرا طبيعيـــا عاديا لا شان

للمجتمع بـه .

وهناك فصل آخر للمقارنة بين الكوميديا الالهية لدانتي ورسالة الغفران للمعري ، والمؤلف يعرض لآراء الباحثين الذين قالوا بتأثير رسالة الغفران في الكوميديا الالهية او الذين قالوا بعكس ذلك ،ويقول ان الرحلات الى العالم الاخر قديمة سبق اليها هوميروس وفرجيل ويوحنا اللاهوتي وسبقت اليها قصة الاسراء والمعراج . ثم يخلص الى القول ان دانتي لم يتأثر على الاطلاق برسالة الغفران وانما أبدع ذلك الاثر الادبي العظيم بخياله المحلق وعبقريته الفذة .

وفي عالم المسرحية يعقد مقارنة بين بيجماليون لتوفيق الحكيم وبيجماليون لبرنارد شو . وهو يخلص الى تفضيل مسرحية الحكيم ويقول انها تفوق مسرحية برنارد شو في ابداعها الفني . وقد بنى رأيه هذا على أساس اعتقاده ان مسرحية شو تعالج موضوعا لغويا اجتماعيا . ويبدو لي ان هذه دعوى خطيرة وجريئة ولا أعتقد ان كثيرين يوافقون على هذا الرأي . لقد عالج شو موضوعا من صميم الحياة الانسانية الا وهو طموح الانسان الى الارتقاء والى تحقيق المزيد من التفوق في الحياة والتسامي الى العلاء . وشتان بين مسرحية شو الزاخرة بالحركة والحياة وبين مسرحية الحكيم التي تكاد تكون مناقشات فلسفية وتأملات روحية .

هناك فصول اخرى تقارن بين فؤاد سليمان وروبرت فروست وبين بودلير وأبو شبكة ، وبين نجيب محفوظ وبراتوليني وبين بدر شاكر السياب وايليوت ، وهي في مجموعها تحمل لنا التعريف بهؤلاء الادباء والشعراء وبأوجه التطابق بين انتاجهم وأفكارهم . ولا شك ان هذا الكتاب محاولة طيبة موفقة تدل على مدى الوعي بأن الثقافة ظاهرة انسانية مشتركة بين جميع الشعوب وأن المفكرين هم أجدر الناس بحمل رسالة الانسانية والتآخي الى جميع الشعوب .

عمان ـ الاردن — سليمان موسى

•

سطور من الرسالة

تاريخ حركة استقلالية قامت سنة ١٨٧٧ ـ تأليف عادل الصلح ـ ٢٠٨ صفحة ـ حجم كبير ـ مطابع دار العلم للملايين ـ بيروت

عندما يدخل غير الادباء المحترفين عالم الادب ، وعندما يخوض في شؤون التاريخ غير المؤرخين الاكاديميين ، فكثيرة هي المرات التي يجني فيها الادب والتاريخ اطيب الثمار .

ونستطيع ان نذكر عديدا من الحالات كان فيها رجل من اهل السياسة يروي قصة حياته فاذا هي صفحة من صفحات التاريخ ، او كان فيها محام بعد مرافعته فاذا هي قطعة من الادب الجميل ، او كان فيها عالم يسجل نتائج ابحاثه فاذا هو يمتع بقدر ما يفيد .

وكتاب «سطور من الرسالة» الذي الفه الاستاذ عادل الصلح هو بين الكتب من هذا الصنف المميز الذي يفاجئك بدقته وروعته وجدته

وكان المؤلف الذي عمل في الحياة العامة بروح تؤثر الانتاج على الضجيج ، فكان في عهد الانتداب الفرنسي من المجاهدين بصمت ولكن بصمود وثبات وتضحية ، وساهم في ان يجعل من حزب الاستقلال الجمهوري ، الذي كان نائبا لرئيسه ، ثم من حزب النداء القومي اداة قوية في يد الحركة الاستقلالية ، ثم كان في رئاسة بلدية العاصمة ، بيروت ، رجل الانشاء والعمل والتفهم لمقتضيات الحياة الجديدة ، كأن المؤلف الاستاذ عادل الصلح قد وضع كتابه بالروح نفسها فقدم اجل الخدمات لتاريخ النهضة العربية الحديثة باكثر ما يمكن تصوره من وداعة النفس والقلم والتواضع والبساطة التي رفعت من منزلة الكتاب معنى ومبنى وجعلته من انفع وامتع ما يطالعه القارىء العربي.

يدور الكتاب حول حركة استقلالية خطيرة قامت عام ١٨٧٧ من أجل استقلال البلاد الشامية عن الدولة العثمانية واقامة دولة عربية يرئسها الامير عبدالقادر الجزائري المنفي وقتئذ في دمشق .

ويصف الكتاب مختلف مراحل هذه الحركة من بدايتها فكرة في رأس جده احمد الصلح ووالده منح الصلح الى تجسدها في مساع عملية قام بها زعماء بارزون في سورية ولبنان الى قيام المؤتمر الوطني في دمشق حيث اقر مندوبون من مناطق مختلفة العمل على تحقيق الدولة المستقلة ومبايعة الامير الجزائري رأسا لها الى النشاط الشعبي الذي عقب المؤتمر الى معرفة الدول الاجنبية بالحركة الى تنبه الدولة العثمانية وقمعها لها واضطهادها وتشريدها لرجالها الى الآثار البليغة التي تركتها الحركة في مستقبل البلاد العربية .

وقد كانت هذه الحركة موضع اعتزاز واشادة في حفلة نقل رفات الامير عبدالقادر الجزائري من دمشق الى الجزائر حيث وقف وزير الخارجية الجزائرية السيد عبد العزيز بوتفليقة يشير الى حركة ١٨٧٧ الاستقلالية ويعتبرها قمة امجاد الامير الجزائري وعنوان الشعور العربي الصادق .

وقد خدم المؤلف كتابه ، الذي ابرز هذه الحادثة للمرة الاولى ، بالاسانيد والوثائق التاريخية المؤيدة لفكرة الكتاب والمستقاة من مختلف المصادر ومنها وزارتا الخارجية البريطانية والفرنسية .

ومما اضفى على الكتاب طابع القيمة النادرة واعطاه طعم القراءة الحارة الاليفة كونه رواية شخصية يرويها المؤلف عن والده منح الصلح الذي لعب دورا هاما في الحركة الاستقلالية المذكورة .

وهذه الخاصة هي التي جعلت الكتاب يدخل فنيا في صنف المصادر التاريخية لا المراجع واسبغت عليه لونا ادبيا اقرب ما يكون الى ادب السيرة .

بيد انه لا بد من الملاحظة ان هذا الكتاب على أهميته يشكو من بعض العيوب التي كثيرا ما تلحق بالكتب التاريخية المروية على السنة الاشخاص وأبرزها الاستطراد والتوسع في ما لا يتصل اتصالا مباشرا بالموضوع وهو حركة الاستقلال نفسها . كما انه ملون تلوينا عاطفيا وذاتيا بلون الاعجاب الاسطوري بشخصية الامير الجزائري الكبير وبمسحة الوفاء العائلي ، المبرر الى حد بعيد ، لجد المؤلف ووالده رحمهما الله .

وحسب كتاب «سطور من الرسالة» ان يقال فيه : ان معرفة الاجيال العربية بنهضتها الحديثة ، لم تكن قبل صدور الكتاب مثلها بعده وان قلم صاحبه العذب واسلوبه الجذاب قد ادخلا هذه الحركة الى العقول من ابواب القلوب .

الياس الفرزلي

•

رباعيات الخيام

ترجمة ابراهيم العريض ـ ؟ صفحة ـ مطبعة (؟)

حديث الكتب حديث عذب طلي لا يمل ، ولا سيما للذين جعلوا المطالعة هوايتهم المفضلة في الحياة . والكتاب ، مهما كان لونه ، ومهما كان مضمونه ، فهو ثمرة عقل وتأملات فكر وهجسات نفس ونبضات قلب ، والمكتبة العربية تزداد غنى وثروة يوما بعد يوم ، ودواليب المطابع في الشرق العربي ، ولا سيما في القاهرة وبيروت ، تدور ليل نهار وتقذف كل يوم عشرات الكتب ومئات الرسائل في شتى انحاء المعرفة..
وكان كتابنا العربي قبل نصف قرن ، محدود الموضوع وفي شؤون تتصل بالادب والتاريخ فلا تتخطاهما الى سائر العلوم والفنون ، اما اليوم فقد خرج من نطاقه الضيق الى رحاب أوسع ـ الى الادبوالعلم والفن والصناعة وما يتفرع عن الادب والعلم والفن والصناعة من الوان

واتجاهات يغذيها الاختصاص بأعمق وأشمل نواحيه وفروعه .

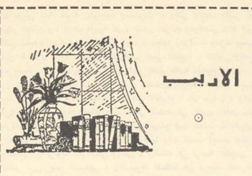
ويحمل بريدي كل اسبوع – اريد بريد مجلة « الحديث » التي توقفت عن الصدور عام ١٩٥٨ بعد ان أصدرت اثنين وثلاثين مجلدا هي مرجع وثيق للتيارات الفكرية المعاصرة – أقول يحمل بريدي كل اسبوع ، واحيانا كل يوم اكثر من كتاب واحد في فنون مختلفة ومن ادباء اعزاء واصدقاء اوفياء ، واقلب الصفحات ، وأقرأ المقدمات . ولا أكاد ابدأ بتلاوة كتاب حتى يجتذبني غيره بموضوعه وأسلوب صاحبه ، فأعيش معه لحظات ممتعة وأكون عنه فكرة ، واهم ان اتناوله بالدرس او بكتابة مقال عنه ، واذا بي مع كتاب ثالث ورابع ، وهكذا أعيش فترات في بلبال من المتعة والواجب – متعة القراءة وواجب الصداقة – صداقة الاديب الصديق الذي ينتظر منك كلمة ، وقد تشعر بالحرج اذا صارحته بما تركه كتابه في نفسك .

لست هنا في معرض الحديث عن مهمة الناقد الذي يجب ان يتفرغ لموضوعه ويطرح كل الاعتبارات الذاتية بل أردت الاشارة الى هذا الفيض الذي تزخر به « المكتبة العربية » ، وهو انتاج ينهمر كالسيل ، وهو اذا قيس بما تقذفه مطابع الغرب عد قطرة او قطرات من فيض ، ولا اريد المقايسة بل اريد ان اشير الى ان «المكتبة الغربية» في هذه الفترة بالذات تزداد غنى وثروة اليوم بعد اليوم ، ولا بد هنا من سؤال يجول في ضمير كل اديب مفكر وهو : هل بلغ كتابنا العربي المستوى الرفيع الذي بلغته كتب الامم التي قطعت شوطا بعيدا في ميادين الفكر والحضارة ؟ وهل يتسم بالجودة والطرافة والجدة والعمق ؟ لا نكران ان المكتبة العربية تحفل بالكثير من الكتب القيمة ، وان كانت النسبة جد ضئيلة لما تقذفه مطابع الغرب ، وعلينا ان لا ننكر اننا في بداية عصرنا الفكري ، وان القارىء العربي ما يزال في جوع للقراءة ، وهو يقرأ الغث والسمين .. ما هو قيم وما هو خواء وغثاء . والقراءة من حيث هي دعم للحياة الثقافية التي تزداد نموا كلما خطونا خطوة في ميادين الحياة العقلية .

ولئن طغت الكتب الرخيصة التي تتحدث عن الجنس وإثارة العواطف وعدم تغذية العقول وصقل الافكار وتهذيب المشاعر – لئن طغت هذه الكتب فترة من الفترات فمصيرها الهباء قريبا ، ولا بد للقارىء هذا اللون من الادب الرخيص – لا بد من يمجه ويزدريه حين تسمو مداركه ويفيق من غيبوبته – نعم ، لا بد له من الانتقال الى افق أوسع وميدان أرحب ، وقد تكون هذه الفترة لونا من التجربة والمران ليقرأ ما هو اكثر فائدة واكثر متعة .

وبعد فموضوع القارىء والكتاب موضوع ذو شعبات كثيرة اتركه للحديث عن بعض الكتب التي تصلني ، وهي وافرة ، فحسبي الالماع الى بعضها الماعا ، على ان اعود الى بعضها بتوسع اكثر ، وليعذرني الصديق صاحب «الاديب» اذا طفا القلم في الحديث عن كتاب احد اصدقائه الاعزاء ..

فقد حمل الي بريد البحرين كتيبا صغيرا أنيق الطبع ، مزدانا بلوحات فنية عن الخيام ورباعياته .. وقد شغل الخيام حيزا غير قليل من ادبنا المعاصر ، فمذ صدرت ترجمة وديع البستاني عام ١٩١٢ الى اليوم والمطبعة العربية تقذف من حين لآخر ترجمات للرباعيات ودراسات عن الخيام من ادباء وشعراء قرأوها بالفارسية او مترجمة عن الانكليزية . وكتب عن الرباعيات وصاحبها – عن اطوار حياته ، وفلسفته ونزعاته الكثير الكثير . وما زال الادباء والشعراء يكتبون ويبحثون ، والترجمات العربية التي بين أيدينا تتفق في المضمون ، وتختلف في الشكل ، منهم من جعل الرباعية سباعية ، ومنهم من جعلها خماسية ، ومنهم من حافظ على الاصل ، بعضهم صاغها شعرا ، وبعضهم ترجمها نثرا – ترجمها البستاني ورامي والنجفي وابو شادي والهاشمي والزهاوي والصراف ، وجميع الترجمات تشف عن نزعات الخيام الوجودية وفلسفته في الحياة ، وتلخص فلسفته بان لا يبيع الحاضر بالغائب ،



لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها شهر يناير ، كانون الثاني

تدفع قيمة الاشتراك مقدما وهي :

الاشتراك العادي :

في لبنان وسورية : ١٢ ليرة لبنانية

للمؤسسات والشركات والدوائر الرسمية : ٢٥ ل.ل.

●

في الخارج : ٢٥ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد العادي

٥٠ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد الجوي

في الولايات المتحدة : ١٠ دولارات بالبريد العادي

٢٠ دولارا بالبريد الجوي

اشتراك الانصار

في لبنان وسورية ٢٥ ل.ل. كحد ادنى

في الخارج : ٥٠ ل.ل. او ٢٠ دولارا كحد ادنى

●

المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد الى اصحابها سواء نشرت ام لم تنشر

للاعلان تراجع ادارة المجلة

●

تليفون : الادارة ٢٢٣٨١٩ المنزل ٢٢٥١٣٩ Tel : Dir : 223819 Dle : 225139

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :

مجلة الاديب – صندوق البريد رقم ٨٧٨

بيروت – لبنان

●

صاحب المجلة ورئيس تحريرها ومديرها المسؤول

البير اديب

وان يعيش حياة مليئة بالمواجيد والمسرات ، ولئن اختلف المبنى في تصوير معانيه وما هدف اليه حين صور أهواءه وهواجس ذاته في حالتي صحوه وسكره ، وايمانه وكفره ، وجده وهزله ، وهزئه ببعض الذين يلبسون ثياب الدين والتقى وهم أفجر الفجرة ـ فالمعنى واضح وقد يضطرب اذا لم يعش المترجم الجو الذي عاشه الخيام !..

ولا أريد ان اغمز من قدرة الذين يتصدون لترجمة الشعر ، بل أريد ان اقول ان الذي يتصدى لترجمة الخيام ، ان يعيش ، ولو لفترات ، بعض الوان حياته وان يتمثل تأملاته في الكون والحياة ومعرفة طباع البشر .. كما لا أريد ان اتوسع فيما حفلت به العربية من ترجمات ، فلكل ترجمة نفحتها وجرسها وان كنت اجد الايقاع الموسيقي في ترجمة البستاني ورامي ، والدقة في ترجمة النجفي ، والتقعر في ترجمة السباعي ، والسهولة المنطلقة في ترجمة الصراف النثرية . وقد أسهب الصراف كل الاسهاب في دراسته لادبه وارائه وجميع ملابسات حياته ، ويعتبر كتابه من أوسع ما كتب عن الخيام ، ولا عجب فالاستاذ الصراف ممن يملكون ناصية الادبين : العربي والفارسي وله جولات واسعة فيهما . وقد درس الخيام دراسة وافية من المنابع الفارسية وخرج بكتابه عن عصر الخيام وأدبه وفلسفته ومختلف نزعاته حتى اصبح الكتاب من المراجع الوثيقة ، ثم ترجم الرباعيات ترجمة نثرية واضحة وهي من الدقة بمكان عظيم .

وجاء اديب البحرين الاستاذ ابراهيم العريض ، بعد تلك الترجمات والدراسات ، يدلي بدلوه بين تلك الدلاء ، والاستاذ العريض اديب وشاعر . وهو ، الى تجاوبه مع الاحداث العربية ، معني بالدراسات الادبية ، وقد صدر له عدة دواوين ومؤلفات تنم على ثقافته الواسعة ، ورأى ، وهو يحسن الانكليزية والفارسية ، وقد قرأ الرباعيات مترجمة شعرا ونثرا وفي اصلها الفارسي ـ رأى ان يصوغها شعرا فهل وفق ام أخطاه التوفيق ؟

ان من يقرأ مقدمته يشعر بالجهد الذي عاناه في ترجمتها ترجمة يرضي عنها ذوقه الادبي وتسوغها روحه الشعرية .. فقد كان يصوغ الرباعية مرة ومرة وقد تصل الى السبع فيطرحها الى ان يستقر ذوقه على واحدة تكون اقرب الى الاصل واوفى بالمعنى .. ويتهم الاستاذ العريض بعض الذين نقلوها عن الفارسية بعدم ادراكهم مدلول الكلمات العربية التي يستعملها شعراء الفرس ، فمدلولها في لغتنا غير مدلولها في لغتهم ..

يقول : « ان للكلمات في لغاتها جوا خاصا بها لا نجده لمرادفاتها في اللغات الاخرى في أغلب الاحيان ، كلفظة «لباس» في الآية الكريمة : « هن لباس لكم وانتم لباس لهن » . وهذا في مفردات الكلم ، فكيف اذا تآلفت مع اخواتها ، فأصبحت امثالا مضروبة تتصل بتاريخ القوم ومعنوياتهم ، وصيغا مألوفة تتداولها الايدي كالدنانير المضروبة في اسواق الادب » . ويقول : « ثم ان هناك كلمات تقتبس من لغة الى لغة للتعبير عن اشياء قد لا توضحها الفاظها ذلك الوضوح ، او لزيادة تحسين في المعنى وتصقيل ديباجته » .. ويضرب على ذلك الامثال مما اقتبسته الانجليزية من اللاتينية والفارسية من العربية فيقول :

« .. وكذلك الحال في الفارسية ، فانها تستمد كثيرا من خزائن لغتنا ، حتى أصبح الجانب الاعظم من ادبياتها قائما على أسس وأركان عربية . ولكن هذه الكلمات العربية التي أصبح اقتباسها عاما في الفارسية ـ شغلت حيزا كبيرا في ادابها ـ غيرها وهي في لغتنا. والخيام كان ضليعا في العربية ، ولكنه اذا استعمل الكلمات العربية في رباعياته فانه يستعملها لتأدية المعاني التي يألفها واصطلح عليها الفرس دون العرب ، شأن غيره من الشعراء في بني لغته ، فمحاولتنا لتأدية معاني تلك الكلمات بالنص عينه غلط .. وأي غلط .. فاذا سمعت الخيام يقول :

حالي خوش زانكه مقصود أينست

او　أين نكتة برانكه زند كاني عشق است

او　ضد كاركني مي غلامست آنرا

او　روحيست كن او تربيت شخص كند

فهو لا يعني بـ «العشق» ما نفهمه ـ وهذه الكلمة كثيرة الورود عندهم في الشعر الصوفي ـ ولا تؤدي كلمتا «النكتة» و «المقصود» في العربية ما يدركه منها الفرس ، والكلمات «غلام» و «تربية» و «شخص» اصبح استعمالها هنا بوجه يستحيل استعمالها كذلك في العربية لعدم وقوعها في محاوراتنا بهذا المعنى الذي يرمي اليه الخيام. وكذلك استعاراته لصيغ عربية في قوله :

آوزاه «اشربوا» در أيام أفكند

او　« نقاش أزل » بهرجه أراست مرا

او　أحوال « مسافرين دنيا » جون شد

او　دركشف حقيقة « شمع اصحاب » شدند

لها معنى من الطرب وجمال فني لا يتذوقه ادباء العرب ولا يمكنهم ان يشعروا بما تنطوي عليه هذه العرائس العربية في وشاحها الفارسي من سحر عجيب وفتنة » .

هذه الاعتبارات جعلته يحتاط كل الاحتياطات في ترجمته ، ومع ذلك فقد اضطر ، ازاء اختلاف عبقرية اللغتين ان يتصرف في تنميق المعاني ومحاولته تركيزها وتحاشي لوكها وتكرارها ، وقد استأثر البعض من المعربين ، كما يقول بالناحية التي لها مساس بحياة الخيام الخاصة ، فصوره بعضهم صبا مغرما ، وصوره البعض فاسقا ملحدا ، واكثر من الغريب في شعره حتى اصبحت المعاني وقد ضرب دونها حجاب . فلا تدرك الا بامعان النظر ، وتبذل في نقله ذاك حتى وقع في ركاكة الناشئين .

وبالرغم من جميع هذه المآخذ التي ألمع فيها الى من سبقه من المعربين يقول :

« .. وانا لا ادعي العصمة ، فقد كانت تعتريني حالات كنت اجيد فيها تارة واقصر أخرى » .

وبهذه الترجمة تكون العربية قد كسبت ترجمة جديدة ، وقد يقول قائل ان الموضوع قد أشبع واستوفى غايته وان الخيام قد عرف بشتى انماط حياته وبذور ثقافته والوان فلسفته وطريق مباذله فما حاجة العربية الى تكرار نفس الموضوع وهو الى ترجمة غيره من شعراء الفرس أحوج » .

سمعت هذا الكلام من كثيرين وقد فات الذين يهجسون بهذا القول ـ وقد اكون انا احدهم ـ ان لعمر الخيام في الانكليزية ما يزيد على المئة والخمسين ترجمة ودراسة وليس بالشيء الكثير ان تظفر العربية، خلال نصف قرن ، بعشر ترجمات !

ونقف وقفة قصيرة مع ترجمة العريض .. فهو مع اعترافه بالاجادة تارة وبالتقصير تارة اخرى لا يتردد ان يقول انها ليست اقرب التراجم الى الاصل .. ومعنى هذا ان من سبقه من النقلة لم يعطونا صورة صادقة عن الخيام ورباعياته .. اذن .. ما هذا الجهد الذي بذله والذي استنفد من شاعريته سنوات .. أغلب ظني ان كلامه هذا لون من تواضع الادباء وقد تختفي بين السطور عنجهية الاعتزاز التي تلتصق دائما بسجية الشعراء ! على ان هذا لم يمنعه ان يقارن بين ترجمته وترجمة الصافي التي تعتبر أصدق ترجمة عرفتها العربية ـ فيقول ان لغته فقهية ! ويضرب مثلا على ذلك الرباعية الآتية :

ناكرده كناه درجهان كيست بكو
وانكس كه‌كنه نكرون جون زيست بكو
من بد كنم وتوبو مكافات دهى
يس فرق ميان من وقوجيست بكو

معناها : « من الذي لم يرتكب في الدنيا ذنبا .. قل لي ، وهذا الذي لم يتلطخ ذيله بغبار الذنوب كيف استطاع ان يعيش .. قل

لي ، واذا انا ارتكبت السيئة فكافأتني بمثلها ، فأي فرق يبقى بين العبد وربه .. قل لي . » يقول الصافي :

الهي ! قل لي من خلا من خطيئة وكيف ترى عاش البريء من الذنب
اذا كنت تجزي الذنب مني بمثله فما الفرق ما بيني وبينك يا ربي !

فمهما قيل في دقة ترجمة الصافي فان لغة هذه الرباعية في تعبيره ـ كما قال احدهم قديما في موقف مماثل ـ لغة فقهية ، وليست بشعر . وهي عندي :

ومن ذا الذي لم يشن قط زينك؟ وكيف البريء بها عاش ، أينك ؟
اذا انت كافات ذنبي عقابا فما الفرق يا رب بيني وبينك

ما أظن ان احدا من الشعراء او النقاد يذهب مذهب العريض ، وقد يفضلون رباعية الصافي التي لا يمكن ان تلصق بشعر الفقهاء !

ثم الم تقسرك ، ايها الصديق ، قيود الترجمة فجعلتك تستعمل تعابير واصطلاحات لا تمت بصلة الى لغة الشعر :

فما كلمة « حسب الظروف » و « كما فصلوا لي » في رباعيتك :

لبست « كما فصلوا لي » ثيابي و « حسب الظروف » سامني كتابي
وما انا أحصيت انفاسها فان تدع عدت ، ففيم عقابي

الا ترى ، وانت شاعر فنان ، وذو ذوق اصيل في مراعاة لغة الشعر ان هذه الاصطلاحات التي حشرت حشرا في الرباعية بعيدة كل البعد عن طلاوة الشعر .

على ان مثل هذه الهنات التي يقسر عليها الشعراء لا تقلل من قيمة الجهد الذي يبذلونه في ترجمة هذه النفحات ، وقد أدى الاستاذ العريض بهذا الجهد ، خدمة جليلة للعربية ، ومقدمته التي اشار فيها الى ما يعانيه التراجمة ، ولا سيما ترجمة الشعر ، من الوضوح بمكان عظيم ، ومع ان المجال يتسع كثيرا للكلام عن ترجمة العريض فاقف عند هذا الحد .

حلب سامي الكيالي

•

عالم حر جديد في آسيا وافريقيا والوطن العربي

تاليف محمد جميل بيهم ـ ٣٠٠ صفحة ـ حجم كبير ـ مطبعة (؟)

جمع بين الوجاهتين ، الادب والنسب ، وحمل أعباء الرسالتين ، الحرية والحضارة العلمية الاجتماعية . وكان في مؤلفاته التي ارتفع عددها الى العشرين بجانب ما نشره من بحوث ومقالات ، ذلك المؤرخ المكين ، والبحاثة الرزين ، والعالم الركين ، والمصلح الفطين والوطني العربي الامين ، فكم شهد له التاريخ من جولات ومناقشات ،والاجتماع من انطلاقات وارتسامات ، والقومية العربية من صولات وانتفاضات ، والسياسة الدولية من نظرات ومناقدات ، والحضارة العلمية من دعوات وخطوات ، والرحلات من مقارنات ومساجلات ، وصراع الشعوب من مطالعات واستدراكات ودراسات ، وفيها كلها ما ينقع الغلة ويدفع العلة ويقي الزلة ويكشف عن الضلة .

ولقد اتيح له وهو المسترفه المتنعم ، وبارك الله على شيخوخته الخصبة الجليلة ، ومد له في حياته الحفيلة ، ان يفتح عينيه على السلطنة العثمانية ويعاصرها في سنوات غروبها ، كما عاصر الثورة العربية البدائية في شروقها ، والانتداب الفرنسي في ولادة هلاله ومحاقه ، ثم اتم الله نعمته على الشعوب العربية باسترداد حريتها واستقلالها ففرت عيونهم وهبوا من مضاجعهم بعد رقاد اجيال ،وجمود امتد وطال ، وعمدوا الى متابعة النضال ، واستقدموا الآجال في عزم واستبسال ، وخطى تقدمية تسابق الامال ، واذا القفص يتحطم تحت زارة الرئبال .

واذا كان قد عاصر يقظة الشعوب العربية وحركاتها الثورية النضالية ، فقد كان يرافق هذه الانتفاضات البطولية ويشارك فيها بفكره وقلبه وبيانه ، ونشاطه ونفوذه وايمانه ، رافقها واقتحم مضمارها وخاض غمارها ولبس صدارها وحمل شعارها ، وصافح نارها ، منافحا مستنفرا ، مكافحا مستكبرا ، متبصرا مستبشرا ، ومن كان له الحق هاديا رفع صوته داويا ، ومضى الى غايته متفانيا متعاليا . ولك اذن ان ترى فيه ذلك المؤرخ المدقق والبحاثة المحقق والناقد المتعمق والمؤلف المتدفق والكاتب المتحذق .

ويسرت له فطنته وثقافته ان يرصد القرن العشرين دارسا منقبا باحثا في فتوحاته العلمية والحضارية ، وهي فتوحات معجزات ، ولولا انها حقائق بينات محسوسات ، لا ترقى اليها اظانين متظننات ، لقلنا انها اساطير وخرافات ، كما رصده في مجازره العالمية الوحشية ، وهي مجازر زلزلت الارض والسماوات ، والتهمت الجماد والنبات وحصدت ملايين المخلوقات ، حتى زبانية الجحيم ارتعدت فرائصهم وفروا الى الظلمات .

هذا كله عاصره وشهده الاستاذ الجليل محمد جميل بيهم وارتسمت صوره في خاطره ولبه ، وانطبعت احداثه في نفسه وقلبه ، فدرس واستقصى في الدروس ، وعلق فملأ الطروس ، وعبس حيث ينبغي العبوس ، وانتشى حيث دارت الاماني بالكؤوس ، وتحسس ما تحسسته النفوس ، من برق خلب او ظفر ماتوس ، او نضال بالتجيع مغموس ، او اصطراع الحق والباطل في حرب ضروس . وفي هذه الحوادث حصائد خطيرة الشأن هي ثروة طائلة لرجال الفكر وينبوع لا ينضب للمؤرخين والدارسين ، بل ان ناحية واحدة من معارك القرن العشرين ، قرن الحروب والثورات والمآسي ، قرن المجاعات والفاقة الروحية ، والانسانية والوثنية ، قرن الانقلابات والانتفاضات، والعقائد والتعاليم المتعاكسة المتشاكسة ، قرن القذائف النووية والصواريخ وغزو الفضاء والدماء والضياء ، ان ناحية واحدة تستوعب

مجلدات ضخمة ، فما الظن لو تناول المؤلف ناحيتين او ثلاثا ؟

وكان الى هذا كله جواب افاق ، فقد امتدت خطاه من اقاصي الغرب الى اقاصي الشرق ، من بيروت الى أوروبه واميركه ، ومن جمهوريات السوفيات الى الصين ، ومن بيروت الى البلدان العربية بجهاتها الاربع ، فما سار على سطح الماء في باخرة حتى دعته البحار الى باخرة اخرى . وما امتطى الهواء وارتفع في الجو على طيارة حتى شق سحائب الفضاء في طيارة سواها ، وما جرت به عجلات سيارة حتى اقلته في جوانحها ثانية وثالثة ، لم تكن اسفاره ورحلاته ، مغامرات ومشقات ومراكب خشنة محفوفة بالاخطار ، كتلك التي عاناها الريحاني الكبير في الجزيرة العربية وسواها . ولكنها كانت باذخة مترفة في فردسة واسعة وهكذا تسنى له ان يتذوق الوانا من الحضارات ، ويتلمس ضروبا من البداوات ، ويقع على اشكال من التقاليد والعادات ، وانماط من الوجوه والهيئات ، وصنوف من المجتمعات والبيئات ، والمذاهب والديانات ، والمسالك والغايات والاتجاهات والثقافات ، والطبائع والنفسيات ، كما تهيأ له أيضا ان يروض الذهن والنفس والقلب بما علق بها من انطباعات وبها استهدفت من ارتسامات ، فجنى من ثمارها ما لا يجنيه في الف كتاب ، وفتحت له باطلاعه على أحوال الشعوب آفاقا جديدة كانت مجموعة من العيون والالباب ، فاستقام له الفكر حين دعاه فاجاب ، وهداه الى الصواب ، وتلك الكوة المحدودة التي أطل منها على العالم فضاقت بالشباب والغلاب والفكر النهم الوثاب ، انفسحت عن اوسع الرحاب ، وانفرجت لابصاره مئات الابواب . دنيا جديدة حافلة بالعجب العجاب، واذا هو من النجم السيار بين الباب والمحراب ، واذا هو من بحر الدرس والبحث والتصنيف في العباب .

ولقد دلتنا مؤلفاته كلها انه يدرس الاشياء بعين العربي الشرقي ، وذهنية العربي الشرقي ، ويقيسها بمقياس العربي الشرقي ، وانه يبحث ويؤلف بيراعة العربي الشرقي وروحه وقلبه ، هذه آية او شارة بارزة في كل ما كتب وحبر ، ودبج وسطر ، وهذا طابع اصيل يؤثر ويذكر ويشكر . بيد أنه يعب اكثر ما يعب من مناهل الثقافة الغربية وعلى الاخص الفرنسية ، ولا ازعم ان منهل ثقافته العربية ضحضاح ، ولكن مصادره في معظم مؤلفاته التي تدور موضوعاتها حول قضايا التاريخ والعرب والاسلام والشرق والحرية والمرأة ، تنبع من مطالعاته الواسعة في الكتب الفرنسية التي يستشهد بها في أغلب ما يستشهد ، دون ان يشوب اتجاهاته الفكرية العربية الشرقية شائبة ، ودون ان يفقد شيئا من اصالة المبادىء ونقاء المناهج في معالجة موضوعاته القومية والاجتماعية والتاريخية .

وقد برزت آثار ثقافته الغربية الواسعة في كتابه النفيس الاخير «عالم حر جديد في آسيا وافريقيا والوطن العربي » حيث نلقى بنبوعين غزيرين يتجاوران ويتلاقيان فاذا هما نهر متدفق ، اما الينبوع الاول ، فقد تفجر من الباطن أي الفكر المولد الحافل بالمعارف والتجارب والثاني تفجر من الخارج ، أي المصادر الاجنبية التي امتزجت بآراء مؤلفه الضليع الاستاذ محمد جميل بيهم ونظراته وسائر ما يفتقر اليه هذا الكتاب الفريد من عناصر الدراسة والبحث والاستقصاء ، فجاء في ذروة مؤلفاته بما استوعب من دراسات تاريخية وسياسية واجتماعية وعمرانية وبلدانية (جغرافية) وفلسفية ، ولا شك ان المؤلف البارع بذل جهدا فكريا موسوعيا عظيما وصرف وقتا ثمينا ، وعانى ما عانى من كد الذهن وشحذ الذاكرة حتى تسنى له ان يضع كتابا شاملا وافيا ، فريدا في بحوثه الموضوعية ، وفصوله السياسية ، ونبذاته التاريخية والبلدانية ، ونقداته الفلسفية الانسانية .

يتالف الكتاب من اربعة عشر فصلا ، وكل فصل تتفرع منه موضوعات وبحوث متعددة ، اما الفصول فهي : ١ - الصراع بين الشرق والغرب ، ٢ - الاستعمار الروسي والسوفياتي ، ٣ - ظلم الانسان للانسان ، ٤ - تصدع صرح الاستعمار وانهياره ، ٥ - الانقلاب السياسي في التوازن الدولي ، ٦ - اسهام الشعوب الاسيوية والافريقية في القضاء على الاستعمار ، ٧ - انتفاضات آسيا وافريقيا ضد الاستعمار ، ٨ - المستعمرات والمحميات في افريقيا السوداء وكيف تحررت ، ٩ - الصراع بين الكتلتين الشرقية والغربية وأثره في تحرير الشعوب ، ١٠ - سياسة الاتحاد السوفياتي في الحرب الباردة تؤمن له الانتصار ، ١١ - الحرب الاقتصادية بين المعسكرين في البلاد العربية ، ١٢ - الكتلة السوفياتية تكسب البلاد الافريقية بالمساعدات ، ١٣ - الكتلة السوفياتية تكسب البلاد الاسيوية بالمساعدات ، ١٤ - خلاصة الكتاب وخاتمة الملاحق ، وقد بلغت موضوعات هذه الفصول سبعة وتسعين في ثلاث مئة صفحة كبيرة الحجم ، وفي هذا القدر دليل واضح على ما تضمن الكتاب من فيض القريحة المتالقة ، والدراسة المتدفقة ، والنظرة المتعمقة الى سعة الثقافة والتجارب وغزارة التحقيقات والجوائب .

ونحن اذا كنا قد اسهبنا في الحديث عن الاستاذ محمد جميل بيهم ، فمن باب توفيته شيئا من حقه ، والاشارة الى ما له من فضل، ولننظر الان في كتابه الحديث أي «عالم جديد حر في اسيا وافريقيا والوطن العربي » ولنخص بالذكر هذا العالم الجديد الحر في افريقيا التي ذاقت شعوبها شر ضروب الاستعمار والاستغلال كما كانت آخر من استيقظ ونادى بالاستقلال .

ولقد اعتدنا في دراستنا للقضايا السياسية العالمية ان ناخذ بالواقعية الراهنة والنظرة العلمية ، أي اننا لا نزور على انفسنا وعلى القراء ، ما تزوره السياسة والاهواء والابواق الرسمية وسائر اجهزة الاعلام التي اولتها الحكومات عناية خاصة فانشات لهـا الوزارات وجهزتها الى جانب المخصصات المالية الضخمة بجيش من المفكرين وحملة الاقلام والخبراء والحناجر القوية التي تستسيغ استهواء الجماهير ان صدقا او باطلا .

ونحن اذ نعترف بان الاستعمار الغربي في افريقية قد تصرمت انفاسه وانهار معقله واساسه ، باشكاله السياسية والعسكرية والقانونية ؟ تتساءل ؟ هل تحررت هذه البلدان الحديثة الاستقلال من اخطوط الاستغلال الاقتصادي والمالي الذي تمثله شركات الاحتكار العالمية الكبرى بعدما تحررت سياسيا ؟

ان المشكلة الكبرى التي اصطدمت بها حكومات الدول الافريقية الناشئة هي معركة القومية أي صهر القبائل المتعددة في بوتقةالقومية الواحدة التي يجب ان تقضي القضاء المبرم على القبلية السائدة ، اما القول بالقومية الافريقية فله اصول سياسية وجغرافية وعاطفية فقط ، ولكنه لا يستند الى جذور علمية فهي اذن غير طبيعية. ونحن حينما نتحدث عن افريقية الجديدة ، نستثني طبعا البلدان العربية الواقعة في القارة السوداء وفي الطليعة مصر التي خطت في ميادين الصناعة خطوات واسعة تدعو الى الاعجاب ، كما نعترف بانه لولا القرآن والاسلام لانتسخت اللغة العربية في الجزائر وتونس والمغرب ، ودرست وامحت . وارتمت عروبتها اشلاء في مدافن التاريخ ، مع هذا لا تزال تعاني شيئا كثيرا من ازدواجية اللغة ..

ولقد كان المؤلف الفاضل بارعا كل البراعة في عرض القضايا الاسيوية والافريقية والمطامع الاستعمارية وما رافقها من صراع هائل بين معسكرين متناوئين لكل منهما وسائل وأساليب وتعاليم ومناهج وتفاسير وغايات متعاكسة متشابكة ، ولكن الغاية الرئيسية القصوى يشترك فيها الاثنان معا وهي بسط النفوذ على الشعوب ، اما الذين يعبدون الله لوجه الله ، فهؤلاء هم الضعفاء المحرومون الماخوذون بالوعـود ..

ومما يجدر التنويه به ان الاستاذ بيهم كان في كتابه هذا حياديا بحتا ، لا تجرفه الى هذا الفريق او ذاك نزعة حزبية او سياسية او

ملية ، او مصلحة مادية وما شابه . قال في ختام مقدمته الشائقة « ولما كانت هذه الفئة الحيادية قليلة العدد جاء التاريخ في كل زمان اقرب الى التزييف منه الى تقرير الوقائع خالصة من النزعات السياسية والقومية والملية . اما واني اعتبر نفسي حياديا في الشؤون السياسية العامة وعربيا غير منحاز وانما اكن الحب للجميع من بني قومي . اما واني لا اتوخى التجارة بتأليفي ولا ابغي الفائدة المادية ، فقد مضيت في سبيلي واضعا كفي على ضميري » . ولقد اصاب اذ وصف القضايا التي عالجها كما رآها بنظره الثاقب ، وكما اتضحت لذهنه الصائب، بعد دراسة عميقة الجوانب ، وبعدما استوحى ضميره في تحليل المذاهب ، ولنا ان نحترم صدقه الذي هو الدليل على كرامة الكاتب ، وصفاء المناقب من الشوائب .

وهناك موضوعات شائكة معقدة صعبة المراس ، تطوف حولها الاقلام ولا تمسها ، ولكن الاستاذ بيهم عالجها بلباقة وتؤدة وحكمة لا تترك مجالا لغضب هذا او استياء ذاك . فقد كشف عن معايب الاستعمار بجميع الوانه وأشكاله ، وارخ لنضال الشعوب بقلم تحرر من عقاله ، ومداد كأنه النور في روعة جماله ، ونحا منحى علميا يصد الفكر عن الاسترسال في خياله ، ولكنه لا يصده عن بسط احلامه وآماله .

واذا كنا قد لمسنا في هذا الكتاب الفريد عناية مؤلفه بالتدقيق والتحقيق ، فقد وقفنا على هفوات قد تقع من سهو المنضد او ضيق الوقت عن مراجعة الاصول والمسودات ، نذكر منها على سبيل المثال ما يلي :

١ ـ « فكان على فاسكو دي غاما ان يستعين بأحمد بن مجيد أحد مشاهير بحارة العرب الخ » (ص ١٧) والصواب : شهاب الدين بن ماجد ، الملقب بأسد البحر الهائج ، وله كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد ، وله ايضا ارجوزة في مسالك البحار .

٢ ـ « وكانت تركستان ويوخارى الخ ص ٣٨» وهي بخارى كما اصطلح العرب على كتابتها وقد اشتهرت بصناعة السجاد .

٣ ـ « فقد كان مصيره (أي شريف مكة وملك الحجاز الحسين بن علي) النفي الى جزيرة قبرص حيث قضى خمسة اعوام ولما اشرف على الموت جاء اليها ولده فيصل ملك الاردن ونقله الى عمان حيث توفي فيها الخ ص ١٢٣» والصواب ولده عبدالله امير الاردن (١٩٣٠) اما فيصل ولده الاخر فكان ملكا على العراق .

٤ ـ « فقررت هيئة الامم المتحدة موعدا لاستقلال الكمرون في أول كانون الثاني ١٩٦٠ على اساس الوحدة بين جزئيه وقد احتفى الصوماليون باستقلالهم ووحدتهم في ذلك اليوم احتفاء باهرا ص ٢٢٠ » والصواب ان الكمرونيين هم الذين احتفلوا بالاستقلال والوحدة لا الصوماليون .

٥ ـ « بينما ان البرتغال التي طردت اخيرا من مستعمرتها الهندية جاوا الخ ص ١٤٨ » وهذه المستعمرة البرتغالية في الهند تدعى غوا او جوا باللفظ المصري . اما جاوا او جاوه فهي جزيرة اندونيسيا الكبيرة التي عاصمتها جاكرتا .

٦ ـ « ذلك ان موازنة الحلف الاطلسي تبلغ ٣٣٦ مليون دولار تنفق على ٤٦ فرقة عاملة بينها خمس فرق افرنسية يصيبها ٢٦٥٠ مليون دولار كل عام ص ٢٤٤ » قلنا اذا كان الحلف الاطلسي ينفق في موازنته على ٤٦ فرقة مبلغ ٣٣٦ مليون دولار فالمبلغ الذي يصيب الفرق الفرنسية الخمس يجب ان يكون تسع المبلغ تقريبا لا أضعاف الموازنة نحو عشر مرات ، فالارقام المذكورة تحتاج اذن الى تصحيح .

٧ ـ في الكتاب ان القراصنة الاوروبيين كانوا على أثر اكتشاف العالم الجديد يغزون شواطىء افريقية الغربية « ويسبون اهلها اجمالا، ثم يحملونهم الى بلدان اميركة للعمل في الحقول الزراعية وسواها ، ويقدر عدد هؤلاء الزنوج الارقاء بنحو ثلاثين مليونا ص ٤٩ » ولا شك ان هذا العدد مبالغ فيه كل المبالغة فلو احصينا عدد الزنوج الذين تحدروا من اولئك الارقاء المسبيين ، لما زاد عددهم حالا اي بعد مرور اربعة قرون على ستين مليونا في الاميركتين . ولو صح ان عدد هؤلاء الزنوج الذين جاء بهم القراصنة النخاسون الى بلدان العالم الجديد هو ثلاثون مليونا لوجب ان يرتفع عددهم بعد اربع مئة سنة الى اكثر من مئتي مليون على اقل تقدير ، واين هم من هذا العدد . ثم لا يخفى على احد ان الاسترقاق كان شائعا وقد تساوت فيه كل الشعوب ، بل ان استعباد القوي للضعيف المقهور رافق الانسان منذ فجر التاريخ حتى القرن التاسع عشر وكانت الجيوش المنتصرة تستعبد الاسرى وسكان المدن المغلوبة رجالا وفتيانا ونساء وتبيعهم في اسواق النخاسة وتستبيح اموالهم التي هي من غنائم الحرب او الفيء باصطلاح العرب . يروي المؤرخون ان عدد العبيد في القرن المسيحي الثاني اناف على عدد الاحرار تحت ظلال النسر الروماني ، وكانت ثورات العبيد متوالية،وثورة المصارع البطل سبارتاكوس على الرومان مشهورة.

وكانوا في روسية القيصرية مثلا اذا باع احدهم مزرعته او قريته باع معها الفلاحين والخدام ، وكانت انكلترة الدولة الاولى التي أقفلت سوق النخاسة واطلقت حرية العبيد (١٨٠٧) وفي ١٨٣٣ وضعت الدول ميثاقا الغت فيه الاسترقاق واستعباد الانسان للانسان .وعندما اعلن الرئيس الاميركي ابراهام لنكولن انتهاء عهد العبودية نشبت الحرب الاهلية التي اسفرت عن تأييد الحق الانساني العام (١٨٦٣) وهذا يعني ان الاستعباد رافق الانسان منذ نشأته المجهولة حتى اواسط القرن التاسع عشر ، وما اجدر الانسانية بان تحتفل بمرور القرن الاول على اعتاق العبيد ، وتحرير الانسان من الاسترقاق وتحريم العبودية في حالتي الحرب والسلم .

٨ ـ رأينا المؤلف الفاضل يسمي الخليج العربي بالخليج الفارسي العربي وكان الجغرافيون الفرنجة يطلقون عليه سابقا اسم الخليج الفارسي ولكن بعدما استيقظ العرب وكسروا انيار الاستعمار والسلطة الاجنبية صححوا التسمية ولم يعترفوا به الا خليجا عربيا على كره من ايران التي استولت على منطقة عربستان الواقعة على شاطىء الخليج المذكور ، وزورت اسمها فاذ هو خوزستان .

وختاما هناك ، في نسختنا على الاقل ، اكثر من سبع صفحات تبتدىء بالسابعة والخمسين بعد المئتين سيئة الطبع لا يهتدىء الى قراءة سطر منها .

ولا شك ان ما اوردناه من ملحوظات على الكتاب لا تفوت علم المؤلف البارع الذي عرفناه مدققا واسع الاطلاع ، ولكن يبدو لنا كما قلنا انه ضاق به الوقت فما اتسعت له مراجعة الاصول ومسودات الطباعة فوقعت هذه الاخطاء التي لا تؤثر في مكانة الكتاب الثمين الفريد ، بارك الله في حياة مؤلفه الجليل ، ورعاه علما عربيا متألق الحرف ساطع العرف ، مبسوط الكف ، متسامي الطرف ، موصول الصرف ..

حمص — نظير زيتون

جولة الأديب في شهر

مع ألبير أديب : نضال ٢٥ عاما من اجل الفكر

... مع البير اديب ، الشيخ الشاب ، الرجل الذي ناضل بأيمان من اجل ان تصدر «الاديب» بانتظام وبدون خلل ، في مطلع كل شهر ، منذ خمسة وعشرين عاما ، فاكد ان الادب حياة او لا يكون ، لكنها حياة زهد خلاق ، وايمان لا يتزعزع .

قابلت الاستاذ البير اديب ، في بيروت ، في غمار المدينة الفائرة ، منذ أقل من اسبوعين فثقل علي ان لا يقتنع الاستاذ البير بيسر بان لمجلته في تونس تأثيرا بعيد المدى ، لم يقتصر على شخص او شخصين ، انما شمل جيلين – على الاقل – هما جيل الاربعينات والخمسينات ، اذ كانت «الاديب» وما تزال ملتقى المثقفين ، تدخل على انفسهم الدفء ، وتعمر قلوبهم انسا ، فعلى صفحاتها يظفرون بالغذاء ، ويجدون صدى لمشاعرهم لاحاسيسهم ... هناك تنحل العقد وتصفو المشاعر وتخلص ، فيكون الغذاء دسما بدون تخمة ، ويكون التجاوب عميقا ، ... فتشق مثل هذه الرابطة الجياشة طريقها نحو الخلود ، يتضافر عليه الحرف في «الاديب» ونفس القارىء .

اسماء عديدة كانت باهتة ، لكنها نطقت من خلال «الاديب» شهرا بعد شهر ، بانتظام ، فكسبت وغنمت الى ان اصبح القارىء العربي – المثقف العربي – يلهج بها .

اسماء عديدة ، قائمة طويلة ، تبدأ بابي القاسم الشابي ربما ، مرورا بسلامة موسى ، بنازك الملائكة ، بدر شاكر السياب ، عبد الوهاب البياتي ، ثريا ملحس ، سميرة عزام ، وقبلهم طوقان ، والناعوري ، والعجيلي ، الى آخر القائمة ، وقد لا تنتهي ...

تلك الاسماء عادت ، شيئا فشيئا ناطقة ، الى ان اصبحت رايات واعلاما ، طلائع .

* * *

حرصت على التعرف الى البير أديب شخصيا ، ودون سواه وقبل سواه باعتباره مناضلا ، نضاله قيادي ، له فضلان : فضل توحيد صف الادباء العرب ، وفضل تشجيعهم على الانتاج الفكري دون ان يحاول ارضاخهم لاي اتجاه مسطر قد لا يخدم مواهب البعض منهم ، ولا يتماشى مع حرية الاديب والمفكر .

وفي كلمة ، هذا البير اديب ، الشخص المتواضع ، صاحب مجلة «الاديب» ، رب العائلة الرصين – عائلة ادب وفن وذوق – اتحدث اليه – باسم القراء – حديثا خاليا من التكلف ، من المجاملة ، من كل ما يصير الجو ثقيلا او مهددا بالصنعة .

وقد شكرت الظرف الذي جعلني اعرف البير اديب ، لانه من أحسن الاصدقاء ولسوف نلتقي من جديد ومن جديد .

* * *

س – انها فرصة من اسعد الفرص ، ايها الاستاذ الكبير ، هذه التي جمعتني واياك في بيروت . فأتاحت لاحد ابناء هذا الجيل مخاطبتك ، والتحدث اليك عن شؤون الادب والفكر ، بل عن النضال من اجل الادب والفكر في العالم العربي واملي ان لا اكون متطفلا اذا ما سألتك الحديث الى الادباء والناشئة في تونس عن هذا النضال الذي يتواصل منذ ربع قرن ، حياة «الاديب» مجلة المثقفين العرب المفضلة .

ج – أشكر لك عاطفتك الكريمة ، كما اشكر الفرصة التي سنحت لك بزيارة لبنان فانني كثيرا ما اطلعت على جريدة « العمل » الغراء ، وقرأت لك ابحاثك القيمة ، وانني ارحب بك في لبنان ، وارجو ان تسمح لك الظروف بزيارة اخرى تكون اقامتك فيها أطول من هذه ، ليتسنى لك الاطلاع اطلاعا وافيا على الحركة الثقافية والادبية عندنا .

س – اعتقد انك تحتل مكانة تخولك ، بكل يسر ، التحدث عن مختلف المدارس الادبية في الشعر ، والقصة ، والبحث ، وحتى المسرحية – هذه المدارس التي ساعدت مجلتك «الاديب» على مخاضها فميلادها ، في العالم العربي .

ج – انا لا اعتقد بانه عندنا مدارس ادبية بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ، فهناك اتجاهات وميول ومحاولات ، اقصد بهذا المذاهب الادبية ، ولا أقصد فيما اعنيه الالتزام ، واذا كانت مجلة «الاديب» قد ساعدت – كما ذكرت – فانما هي قد ساعدت وساهمت في ظهور الطليعيين ، او ادباء الطليعة ، اصحاب المحاولات التي خرجت عن المتواتر المألوف ، ومحاولات شق طريق التجديد ، فمنهم من نجح ووفق ، ومنهم من توارى ، ولم ينجح . واذا ابهم بعض الشيء – فيما ذكرت – اوضح فاقول انه ليس لدينا مدارس نابعة من ذاتيتنا ، انما هي تقليد غير موفق احيانا كثيرة للمذاهب الغربية المعروفة في الاداب .

س – هل لك ، يا استاذ البير ، ميل خاص الى نوع من الادب دون غيره ؟

ج – اميل الى الشعر اكثر من سواه ، وان كنت اتذوق ، واقدر سائر الفنون الادبية ، ولكن لي ميل خاص الى الشعر ، فهو يؤثر في نفسي كثيرا ، وتغمرني روعته وهو ليس كسائر فنون الادب اذ انه موهبة لا صنعة .

س – هل تذكر انك فضلت انتاجا على انتاج عند توليك نشره ؟

ج – نعم ، افضل دائما ما يحمل طابع الابتكار والتجديد والعمق ، وأميل الى الفكر اكثر من البلاغة . وما انشره في «الاديب» يكون عادة موزعا بين مختلف فنون الادب ، فمن البحث الى المقالة الى القصة ، والشعر ، وسوى ذلك .

وهذا لا يعني حتما انني انشر فقط ما أفضله ، لذلك تضم «الاديب» عادة نتاجا قد ارضى عنه وقد لا ارضى ، وان رضي عنه القارىء .

س – ما هو انتاجك الفكري الشخصي ؟

ج – عندما انشأت مجلة «الاديب» كنت على اعتقاد راسخ بانها ستكون مجالا واسعا لنشر انتاجي ففي السنوات الاولى من «الاديب» وفقت – رغم المصاعب التي اعترضتني – الى نشر بعض هذا الانتاج ثم اخذت في الانكماش تدريجيا تحت وطأة العمل وارهاق الاشغال . واكتفيت بالتوجيه والتدريب كمعلم المدرسة – مثلا – حتى ان مجموعتي الشعرية «لمن ؟ » نشرتها لي دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٢ ، ولم اتمكن انا من نشرها مع العلم بأن «الاديب» وقتها كان لها دار للنشر موفقة ، ولدي الان مجموعة من المقالات الفكرية ومجموعة اخرى شعرية ومجموعة رسائل ادبية لا املك الوقت الذي يسمح لي بتحضيرها للطبع وهكذا خاب ظني في فكرتي الاولى التي راودتني عندما انشأت مجلة «الاديب» .

س – يعرف المثقفون العرب انه من النادر العسير ان تعمر مجلة أدبية ، وتاريخ حركة النشر العربية يشهد على ذلك ، وفي كل بلد عربي مثال بل امثلة ... فهل لك ان تبوح من اسرارك بسر حتى يتعظ الشباب وكي يتلمسوا من الان السبيل الهادية الموصلة تلك التي

تمكنهم من مواصلة رفع راية الفكر وحمل المشعل ، جيلا بعد جيل ؟

ج ـ هذا السؤال ، في ردي على السؤال السابق بعض الايضاح عنه ، فقد نذرت نفسي ووقتي ، وكل ما املك في سبيل «الاديب» .

انني اقوم بجميع اشغال «الاديب» من تحرير وادارة دون مساعدة ومعاونة ولا اقول انها تضحية مني ففي ذلك لذة لي وسعادة ، والا لما داومت على هذا العمل الشاق طيلة ربع قرن ، وشعاري كان دائما خدمة الفكر والادب العربي بتجرد واخلاص وعدم الضعف امام المغريات، واعتبرت «الاديب»رسالة سامية علي ان احمل اعباءها وفي عنقي اماناتها، حرمت نفسي من اشياء كثيرة مثال ذلك اعتذاري عن تلبية الدعوات العديدة التي تلقيتها من مختلف الاقطار لزيارتها اذ ان شعاري كان :

اما ان تخرج «الاديب» او اخرج انا ... فكنت افضل دائما ان تخرج «الاديب» وابقى سجينا .

وفيما يخص النشر في «الاديب» فقد ترفعت عن الادب الذي يثير المراهقين ، وادب الجنس ، وان كان ذلك قد يروج المجلة ، اذ ان الغاية ليست التجارة والربح ، بل كما قلت ـ هي رسالة .

وفي السياسة انتهجت سياسة عربية ، مخلصة تخدم هذه الامة عن طريق توعيتها فكريا وثقافيا ، كما ان المجلة لم تكن اقليميـة ، وشرعت ابوابها لجميع الادباء العرب من مختلف الاقطار ، فكان لها فضل التعارف والتعاطف بينهم .

وهكذا لم تمنع «الاديب» من دخول اي قطر عربي باي ظرف كان .

س ـ حسب ملاحظتك من خلال تجربتك الفنية الطويلة ، ما هو مدى اسهام الادباء والمفكرين التونسيين خاصة والمغاربة عامة ، فيما نشر في «الاديب» منذ ربع قرن ؟

ج ـ لقد ساهم الادباء والمفكرون التونسيون خاصة والمغاربة عامة في النشر بالاديب في سنواتها الاولى عندما كانت بلادهم ترزح تحت الاستعمار ، فكانت «الاديب» منطلقا لاقلامهم . ولم يكن في ذلك الحين، في شمال افريقيا ، مجلات ادبية تحررية ، وبعد الاستقلال ، خفت هذه المساهمة واعتقد ان ذلك عائد لسببين : الاول مساهمة الادباء مساهمة فعالة في الحركة السياسية الانشائية التي اخذت تدب في بلادهم . والثاني : صدور مجلات ثقافية وادبية في مستوى رفيع اخذوا يسهمون في تحريرها.وبذلك خف نشاطهم في «الاديب» وان لم ينقطع.

س ـ لك ، يا استاذ البير ان تكون على يقين كامل بان لمجلة «الاديب» اعمق التاثير في اجيال الاربعينات والخمسينات بتونس ، وبان كل اديب ومفكر ومثقف في اشتياق الى التعرف اليك مباشرة ، فهل تنوي زيارة تونس ، وقد فتحنا آفاق التبادل واسعة حتى يكون التلاقح اصيلا ، سليما ؟

ج ـ اشكر لك هذه العاطفة الكريمة التي ذكرتها ، وقد سبق ان تلطفت الحكومة التونسية ودعتني لحضور حفلات «ابو القاسم الشابي » التي اقيمت مؤخرا ، فاعتذرت وذلك عائد الى ما سبق وذكرته .

وانها لتظل امنية احلم بها الى ان تسعفني الايام فازور تونس التي حدثني عنها الكثيرون ممن زاروها ، والتي هي الى جانب الروائع الطبيعية التي فيها ـ تضم نهضةشاملة مركزة في مختلف مناحي الحياة.

س ـ في تونس ، نعتز بشاعر عاش حياة الثائر ومات شابا ثائرا هو ابو القاسم الشابي ، وقد اكرمته تونس المستقلة عندما اقامت مهرجانا ثقافيا عربيا يحمل اسمه ، وذلك لاول مرة في هذا العام ١٩٦٦ فما هو رايك في هذه المبادرة ؟

ج ـ كانت «الاديب» من اولى المجلات التي عرفت بابي القاسم الشابي ، وباثاره الادبية الرائعة وذلك منذ اكثر من (٢٣) ثلاثة وعشرين عاما وقد غمرتني الغبطة عندما علمت بخبر المهرجان المئوي عقده تكريما لذلك الشاعر الفذ . وملات قلبي السعادة بعد اقامة المهرجـان ، واطلاعي على اخباره ، فقد كان حقا اكثر بكثير من المالوف ، ومما كنت اتصوره .

يا ليت حكومة لبنان تكرم شعراءها وادباءها نصف هذا الاكرام .

لقد اكدت تونس بذلك ان للفكر والفن والادب الشان العميق في كيان الامة .

س ـ حركة النشر الادبي في تونس تقتصر حاليا على مجلةشهرية «الفكر» وصفحات اسبوعية تنشرها الصحف السيارة ، وخاصة منها «العمل» وهي تنوي اصدار ملحق ثقافي اسبوعي بعد اجل قريب فما هي النصيحة التي تفيدنا بها في هذا المجال لتنتعش هذه الحركة ، ويتغـذى المثقف ؟

ج ـ اني اطلع باستمرار على مجلة «الفكر» التونسية وهي حقا مجلة قيمة راقية كارقى ما تكون المجلات الادبية الفكرية ، واطلع كذلك على الصفحة الادبية التي تصدرها جريدة «العمل» التي تحمل الينا اسبوعيا اصناف النشاطات الفكرية والادبية والفنية في تونس مما يجعلنا على صلة ، دائمة بكل جديد في هذه النواحي ، ويسرني ان اسمع قرب صدور الملحق الثقافي الاسبوعي .

لقد اخجلتم تواضعي بطلبكم النصيحة ، فانتم قد عرف عنكم الكثير من عمق الثقافة ، وشمول الفكر ، والبراعة المهنية والاخلاص كل الاخلاص لرسالتكم ، غير انه اذا كان لي ان الفت حسن انتباهكم فالى شبه تجربة خبرتها في «الاديب» : لا تفتحوا المجـال للاعلام المشهورين فقط ولا تفتحوا المجال للطليعة فقط ، انما فليكن الملحق سجلا للثقافة والادب والفن عامة يضم القديم والحديث ، او المعروف في المذاهب القديمة والمذاهب الحديثة ، فذلك اصدق في تسجيل الحركة الادبية كما انه لا يغمط الكلاسيكيين حقهم ، ولا يوصد الابواب امام الناشئين . المهم الروعة ، الشيء الرائع ، الشيء الجيد هو الذي له الافضلية على سواه ، واتمنى لكم كل نجاح وتوفيق .

واعتقد انكم كنتم في غنى عن كلمتي هذه التي قلتها فقط لارد على سؤالكم ، واني اشكر لكم زيارتكم الكريمة وارجو ان تسعدنا الايام للقاءات ثانية باذن الله .

واحملكم اجمل التحية لاخواني الادباء التونسيين .

جريدة «العمل» ـ تونس — صلاح الدين بن حميدة

رئيس تحرير جريدة «العمل»